القسم الثاني

رسائل ابن أبي الشخباء
القالب الفني والخصائص الأسلوبية

(أ)

يُعَدّ ابن أبي الشخباء من أبرز الكتّاب في العصر الفاطمي، وقد أشاد ببراعته وبلاغته بعض أصحاب المصادر القديمة والمراجع الحديثة، وذكروا الكثير عن فضله، حتى إن القاضي الفاضل تأثّر به، وتُعَدّ رسائل ابن أبي الشخباء سِجِلّاً طَريفاً للكتابة الإخوانية في العصر الفاطمي. وما تبقّى من رسائله يصلح أن يكون مصدراً للبحث والدرس، للوقوف على طريقته الفنية، والتعرف على خصائصه الأسلوبية، «وربما كان ابن الشخباء كاتب عصر المستنصر خير من يعبّر عن ازدهار النهضة الفنية للنثر الفاطمي»[1].

ومما لا شك فيه ضياع معظم رسائله خاصة الديوانية، ومع هذا فإنه أحسن حظاً من بعض كتّاب الرسائل الإخوانية الآخرين في عصره، أمثال ابن الصيرفي وابن قادوس والموفق وابن الخلال. فإن ما تبقّى من رسائل لهؤلاء الكتاب قليل قلة لا يصلح معها تفسير خصائص فنّهم، وقد جاء ذكر بعضها في صُبح الأعشى[2]. «والحق إن المؤرخين خاصموا كتّاب الفاطميين، ولم يصفوهم وصفاً واضحاً، بسبب ما كانت عليه دولتهم من تشيع، وكان ينبغي أن يفصل هؤلاء المؤرخون بين بُغضهم للفاطميين

(١) د. شوقي ضيف ــ الفن ومذاهبه في النثر العربي ــ ص ٣٥٦.
(٢) القلقشندي ــ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ــ ٨/٣٢٤، ١٠/٢١٠، ٣١٨.

وتشيعهم، وبين تقديرهم لآثار من نشأوا في خلال دواوينهم»[1].

وقد ظُلم هؤلاء الكتّاب لضياع معظم آثارهم، بينما كان شعراء الشيعة أكثر حظاً، فقد رويت أشعارهم، واهتم المسجلون بتدوين دواوينهم، وبقي من الشعر الشيعي نماذج كثيرة صالحة للدرس والبحث، مثل شعر دعبل بن علي الخزاعي، وشعر السيد الحميري وغيرهما.

وربما لم يكن التشيع هو المسؤول الوحيد عن ضياع رسائل كتّاب العصر الفاطمي، فإنّ صورة التشيع في رسائل الكتاب باهتة غير واضحة المعالم، بينما كان التشيّع وأركانه والدعوة إليه واضحة تماماً في شعر شعراء الشيعة، ومع ذلك وصل شعر الشيعة ولم تصل معظم رسائل الكتّاب.

ويهتم هذا القسم من البحث بتحديد أهم معالم فن الكتابة الإخوانية في رسائل ابن أبي الشخباء، لمعرفة طريقة الكاتب في افتتاحيات رسائله وفي خواتيمها، وطريقته في عرض الموضوعات من خلال رسائله، والوقوف على أهم سماته الفنية في الاقتباس من القرآن الكريم أو الحديث الشريف والأمثال القديمة، وتضمين الرسائل أشعاره وأشعار غيره، فضلاً عن الخصائص البديعية والبيانية من السجع والجناس والطباق والموازنة والازدواج ومراعاة النظير والتشبيه والاستعارة والكناية، كما أن لغة ابن أبي الشخباء في رسائله تُعَدّ من الأمور التي تستوجب النظر فيها، لمعرفة طريقة الكاتب في انتخاب ألفاظه، ومذهبه بين السهولة والجزالة، ومعرفة تراكيب جمله واهتمامه بالتقديم والتأخير أو الحذف والذكر، أو الجمل الإعتراضية والجمل الشرطية والترادف والتكرار إلى آخر هذه الظواهر الأسلوبية في لغة ابن أبي الشخباء.

* * *

(١) د. شوقي ضيف ــ الفن ومذاهبه في النثر العربي ــ ص ٣٥٨.

أما عن **افتتاحيات الرسائل وخواتيمها**:

فإن المطالع من الأمور التي يُعرف بها جودة الكاتب، إذا أجاد في مطالع رسائله، ويشترط «أن يكون مطلع الكتاب عليه جدة ورشاقة، فإن الكاتب من أجاد المطلع والمقطع، أو يكون مبنياً على مقصد الكتاب، وأن يكون خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة لتكون رقاب المعاني آخذة بعضها ببعض»[1].

وللرسائل عامة مطالع تعوّد الكتّاب على الالتزام بها، والتقيّد بما جاء في هذه المطالع من عصور الكتابة السابقة للفاطميين، بيد أن للرسائل في ظل الفاطميين بمصر مطالع يغلب عليها تغليب العقيدة الفاطمية، كما أن لابن أبي الشخباء مطالع يتفق فيها مع غيره، وله مطالع خاصة به، فقد حاول التحرر من قيود المطالع، وعدم الالتزام بالجمل التقليدية في الافتتاح بالبسملة، والتحميد والدعاء.

ومن الواضح أن مطالع ابن أبي الشخباء في رسائله الإخوانية تختلف عن مطالعه في رسائله الديوانية، والسجلات الأميرية التي كان مكلفاً بتحريرها. ولم تكن هذه الظاهرة خاصة بابن أبي الشخباء وحده، بل تنسحب على جميع كتّاب عصره، فللرسائل الديوانية مطالع خاصة، وللرسائل الإخوانية مطالعها الخاصة ــ أيضاً ــ وتظهر مطالع ابن أبي الشخباء واضحة، حين يوجه رسالته إلى شخصية هامة في مجتمع، فيغلب على الرسالة طابعها الرسمي، بينما كان يتحرر من هذه المطالع حين يكاتب صديقاً تربطه به علاقة مودة وإخاء. كما أن الموضوع ذاته يفرض على الكاتب افتتاحية مختلفة عن غيرها؛ فرسائل ابن أبي الشخباء في المدح وطلب العطاء، تختلف

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ــ لابن الأثير، تحقيق د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة ــ دار نهضة مصر، القسم الأوّل ــ ص ٩٦. والهاشمي ــ جواهر الأدب ــ ص ٢٣ و ٢٤.

مطالعها مع رسائله في الاعتذار وطلب الشفاعة، عنها في رسائله في التهكم والاستهزاء.

وقد تعوّد كتّاب هذا العصر بمصر على أن: «يبدؤوا رسائلهم بحمد الله، والدعاء لأمير المؤمنين»[1]، وكان افتتاح الرسائل ـ غالباً ـ يعتمد على الدعاء بصلاح الدنيا والآخرة، «ومنهم من كان يهجم على موضوعه دفعة واحدة»[2]، «وكانت الرسائل الصادرة من الديوان الفاطمي بمصر لا تختلف كثيراً عن الرسائل الصادرة من خلفاء بني العباس»[3]، ويذكر القلقشندي في صبح الأعشى: «أن هذه المكاتبات عند الفاطميين كانت تبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم، ثم يقال: «من عبد الله ووليّه فلان إلى فلان» ويذكر نعته إن كان الإمام قد شرف بنعت ثم يقال بعد ذلك: «سلام عليك فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إلّه إلّا هو ويسأله أن يصلي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله والأئمة المهديين ويسلّم تسليماً»[4].

وفي الواقع فإن رسائل الفاطميين كانت تختلف عن رسائل العباسيين، وعن غيرهم من غير الشيعةَ، فقد أثّرت العقيدة الشيعية والمذهب الفاطمي في مطالع الرسائل التي تبدأ بالحمد لله أو التحميد، ثم الصلاةعلى النبي وعلى الوصي وعلى الأئمة من أهل البيت، «يتعمدون دائماً أن يذكروا أن محمداً جد الأئمة، وكأنهم كانوا يحاولون إثبات نسبهم في كل رسالة من رسائلهم وكل

---

(١) د. محمد كامل حسين ـ في الأدب المصري الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى دخول الفاطميين ـ مطبعة الاعتماد ـ ص ٨٩.

(٢) المرجع السابق ـ ص ٩٣.

(٣) محمود مصطفى ـ الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيّوبي ـ ص ٢٣٩.

(٤) القلقشندي ـ صبح الأعشى ٤٣٢/٦.

سجل من سجلاتهم، وكأنهم أرادوا بتكرار هذه الناحية تأكيد ما حاول خصومهم نفيه، أو كأنه ردّ على سجلات العباسيين في دحض نسب الفاطميين، وهذه الظاهرة واضحة كل الوضوح في رسائل الفاطميين، منذ دخل جوهر الصقلي مصر إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية، ولعل هذه الظاهرة هي التي تميّز رسائل الكتّاب الفاطميين عن غيرهم من كتّاب الأقطار الأخرى التي لم تخضع لحكم الفاطميين»[1] وتتضح هذه الظاهرة في مطالع الرسائل الديوانية، ولا تظهر في مقدمات الرسائل الإخوانية إلّا في النادر، وكان الابتداء بقولهم من عبد الله ووليّه فلان، وأحياناً تبدأ بحمد الله ويستمر الكاتب في الدعاء إلى وليه وسلطانه.

أما عن الرسائل التي كانت ترد إلى الخلفاء الفاطميين من ولاتهم وغيرهم، فمما لا شك فيه أن مطالعها كانت تختلف عن مطالع الرسائل التي كانت تصدر عن الخلفاء الفاطميين إلى ولاتهم، وكانت هذه الرسائل التي تصل إلى الخلفاء تستفتح باسم الله ومنها: أفضل صلوات الله وبركاته وأشرف رضوانه وتحياته على مولانا وسيدنا الإمام الفلاني أمير المؤمنين، وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، أو أبنائه المنتظرين وبعدها يقال: «كتب عن الموقف النبوي، خلّد الله ملكه، من شعر خدمته بناحية كذا، وأمور ما غدق به ورد إلى نظرة منتظمة بسعادة مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى جدّه والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وسلّم تسليماً»[2].

وكانت هناك رسوم أخرى يتبعها الخليفة في مكاتباته مع خاصته كالوزير

---

(١) د. محمد كامل حسين ــ الأدب الفاطمي ــ ص ٣٢٣.

(٢) القلقشندي ــ صبح الأعشى في مواطن مختلفة.

وغيره، وكانت هناك رسوم أخرى أيضاً يتبعها الكتّاب في رسائلهم إلى إخوانهم، فقد كانت مطالع الرسائل تختلف حسب اختلاف الموضوع الذي تدور حوله الرسالة، وحسب طبيعة الشخصية التي ترد منها أو تصدر إليها.

وكان ابن أبي الشخباء في رسائله الإخوانية يسلك مسلكاً معيناً في مكاتباته إلى الأمراء والولاة والوزراء والقادة، يختلف عن مسلكه مع أصدقائه وإخوانه، وحين يكتب ابن أبي الشخباء رسائله إلى الوزراء والولاة فإنه يبدأ هذه الرسائل عادة بالدعاء لهم، وكان دعاؤه ينصب على طول العمر، وطول دوام الحكم، ويقرن الدعاء بما يجعل بقاء الأمير أو الخليفة بقاء طويلاً، فنراه يقول في مطلع رسالة له: «خلّد الله أيام الحضرة الأفضلية، ما فضلت الأسماء حروفاً، وتقدمت واو العطف معطوفاً، ولزمت الأفعال اشتقاقاً وتصريفاً»[1]، وفي أخرى يقول في مطلعها: «أطال الله بقاء الحضرة الصارمية، ما عظم رجب في الإسلام، وولج الضياء في الظلام، ووشيت الطروس بأسنة الأقلام»[2]. وفي ثالثة يقول ابن أبي الشخباء في مطلعها: «أطال الله بقاء الحضرة السامية معمورة بموفور السعادة ديارها، مشدودة إلى قصدها أنساع العير وأكوارها، مغلولة عنها أنياب النوب وأظفارها، ولا زال من مدّ الظل ولو شاء جعله ساكناً»[3]، ويمد عليها الظل ما سرى في الليل سفر، وطلع في السماء غفر[4]، وخرج عن أيدي الكلام وفر، وأنس بالركبان مهمه قفر»[5]، وكان الكاتب لا يطيل في دعائه في بعض رسائله حين كان يدافع

---

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ٤/٦٤٠، ٦٤١.

(٢) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ٤/٦٤٣.

(٣) قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ مَدَّ الظِلَ وَلَوْ شَاءَ جَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ (الفرقان: ٤٥).

(٤) الغفر منزل من منازل القمر، ثلاثة أنجم صغار وهي من الميزان.

(٥) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ٤/٦٤٥.

عن نفسه أو يطلب الشفاعة، فيقول: «أنا ـ أدام الله تمكن مولاي ـ »[1]، ويدخل في الموضوع مباشرة، أو يقول: «أنبئت ـ أطال الله بقاء مولاي»[2]. وفي معظم رسائله الإخوانية، كان يهجم على الموضوع مباشرة، مثل رسائل الشوق ورسائل السخرية والتهكم، ورسائله التي شكا فيها غدر الزمان، ونوائب الدهر. فيجعل مطلع الرسالة يتفق وموضوع الرسالة، ففي رسالته التي يهنىء فيها الوزير الذي قبض عليه وقت الظهر وأُفرج عنه في العشاء، يجعله كالنجوم التي تغيب ثم ترتفع، فيقول في مطلع رسالته: «من كرم الله وجزيل إنصافه، وجميل صنعه وإلطافه، أنه جعل سيدنا كالنجوم تغيب ثم ترتفع في غير سمتها»[3]، وفي رسالة ابن أبي الشخباء التي يُعزّي فيها بموت ولد فخر الدولة غريقاً، يبدؤها بقوله: «غير بدع من الزمان ـ أطال الله بقاء حضرة سيدنا ـ أن تنكث حباله، وتعدد نباله، وتراش في قصد الكرام سهامه»[4]، وفي رسائله التي يسخر فيها، يهجم على الموضوع دفعة واحدة، ولا يجعل لرسالته مطلعاً خاصاً فيقول: «رأيت فلاناً عند نظرته لي بالأمس قد قطّب حاجبه، وزعزع مناكبه»[5]، وفي الأخرى يقول في مطلعها: «أرى سلام سيدي قد تقاصر طويله، وروض جوّه قد زاد ذبوله، وماء بشره قد غاضت بحوره»[6]، وفي رسائل ابن أبي الشخباء التي يطلب الشفاعة فيها ويدافع عن نفسه لا يأتي بمطالع تقليدية بل يدخل في الموضوع بقوله: «المودات إذا

---

(١) ابن بسّام ـ الذخيرة ـ ص ٦٥٢.
(٢) ابن بسام ـ الذخيرة ـ ص ٦٤٨.
(٣) ابن بسّام ـ الذخيرة ـ ٤/٦٣٥.
(٤) ابن بسّام ـ الذخيرة ـ ٤/٦٥٨.
(٥) ابن بسّام ـ الذخيرة ـ ٤/٦٣٠.
(٦) ابن بسّام ـ الذخيرة ـ ص ٦٣٠.

كانت متينة العقود، صادقة المشهود»[1]، وفي رسائل أخرى يتحرر ابن أبي الشخباء من مطالع الرسائل التقليدية، ويدخل في موضوعه مباشرة، ولا يلتزم ابن أبي الشخباء بمطالع خاصة لرسائله إلاّ في حالات نادرة حين يطلب العطاء، أو حين يمدح الرؤساء، ويطيل في الدعاء، ويلح على طول البقاء، ودوام الحكم واستمرار السلطان، ويتفنن الكاتب في مطالع رسائله حين يعرف الدعاء بأمور في الحياة تتسم بالبقاء والاستمرارية، طالما الحياة باقية، وفي بعض رسائله يجعل مطالعها تتفق وطبيعة الموضوع، وتدل عليه، فللوداع مطلع خاص، وللشوق مطالعه، ودون أن يلتزم في رسائل بمطالع تقليدية معروفة ــ فحين يسافر الصديق، يفتتح رسالته بقوله: «لما حديت ركاب مولاي، أخذ صبري معه، وصحبه قلبي وتبعه»[2].

* * *

أما عن خواتيم الرسائل عند ابن أبي الشخباء، فمن المعروف أن الكتّاب كانوا يلتزمون بتقاليد فنية في خواتيم رسائلهم، كما كانوا يلتزمون في مطالعها، وكانوا يأتون بعبارات ورسوم فنية مألوفة، ومن هذه الخواتيم ما كان متّبعاً في آخر رسائلهم السلطانية من قولهم: «والعبد ينهى كذا وكذا»، وكان الختام يتشكّل بالغرض من الرسالة فإذا كان الغرض منها، أن يقف السلطان على خبر يعلمه، أو نبأ يتيقنه، فيقول الكاتب: «أنهى العبد ذلك ليستقر علمه بالموقف الأشرف إن شاء الله تعالى»، وإن كان يراد منها أخذ رأي السلطان في أمر ما، يقول الكاتب: «ولمولانا أمير المؤمنين الرأي العالي في ذلك إن شاء الله تعالى»[3].

---

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٢٧.

(٢) ياقوت ــ معجم الأدباء ــ ١٥٢/٩.

(٣) القلقشندي ــ صبح الأعشى ــ الرسائل الديوانية.

وتتأثر خواتيم الرسائل في العصر الفاطمي بالعقيدة الفاطمية: «ولم يشذ عن ذلك كاتب من كتّابهم، ولعل هذه الخصلة تظهر في سجلات الفاطميين أوضح من ظهورها في رسائلهم، والسبب في ذلك أن السجلات الفاطمية كانت أقرب إلى البلاغات الرسمية التي تصدر عن ديوان أي حاكم في عصرنا الحديث»[1].

وخواتيم رسائل ابن أبي الشخباء الإخوانية تختلف باختلاف موضوع الرسالة، ويلتزم الكاتب بالدعاء غالباً، في ختام معظم رسائله، ويختلف الدعاء حسب مطلع الرسالة وحسب موضوعها، فيدعو في ختام رسائل العتاب، بحفظ المودة والعمل على رأب الصدع، والقضاء على ما يوجب الخلاف، ويدعو إلى ضرورة التحقق من الخبر قبل تصديقه، فيقول في ختام رسالة له يعاتب صديقه: «ويجب أن يتحقق مولاي أني ما أطلقت هذه اللفظة إلاّ وقد حصر الكتمان، وسمعت ما يصم الآذان»[2]، ثم يدعو له بقوله: «والذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً، يجعل أمداد النعيم على الحضرة مغدقة، ووفود المواهب بساحاتها محدقة، ويمتع الدنيا بمحاسنها التي يتضامن لها ذوو الأبصار، وتتأرج تأرّج القطر في جميع الأقطار»[3]، وفي ختام رسالة أخرى جاء فيها: «والله جلّت قدرته ــ يجعل حفظ المودة عنده أوجب الحقين، وأنفع العلقين، ويدفعه عن السمة بنقض المرائر، وحلية الجائر الغادر»[4]، وفي ختام رسائل الشوق يعبّر عن محبته وودّه، ويطالب بعودة الصديق ليفرح بخبر البشير عندما يبشّره بقُرب اللقاء، «وما يبعد ذلك في

(١) د. محمد كامل حسين ــ أدب مصر الفاطميّة ــ ص ٣٢٣.
(٢) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٤٩.
(٣) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٥١.
(٤) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٢٩.

قدرة الله، الذي يخرج من الشجر الأخضر جذوة نار، ويهب القمر كمالاً بعد نقص وسرار»[1].

وفي رسائله التي يمدح فيها الرؤساء، ويطلب العطاء، يختمها بعبارات توضح طلبه، وتبين حاجته ورغبته في المنح والعطايا، فيقول في ختام بعض رسائله: «والله تعالى المسؤول أن يهب لي من قرب مولاي ما يأسو هذه الكلوم، ويجدّد من المسرة عافي الرسوم، فجميع الحوادث، وسائر النوائب والكوارث، إذا قَرُبت الحظوة استجيبت هذه الدعوة، تمسي غير مذكورة، وبجناح التجاوز مكفورة»[2]. ومن دعاء ابن أبي الشخباء في ختام رسالة له من هذا اللون: «حرس الله محاسن الحضرة السامية، التي جباه الأنام بها موسومة، وتمّم نعمها التي هي بينها وبين الناس مقسومة، ولا زالت الدولة الفاطمية تحمد عزائمها، التي شهدت لها بمداومة الكفاءة، وأنشرت من النصائح كل رميم رفات»[3]، وقد يفصح الكاتب صراحة في ختام رسالته التي يمدح فيها الرؤساء والقواد، فيطلب العطاء دون تستر أو حياء، فيقول مثلاً: «والعبد يسأل أن يختصر عليه في الإكرام، ويقف به دون ذلك المقام، فاللمحة في البدر تضيء السبيل، والقطرةفي الماء تبرد الغليل»[4]، فيجعل الكاتب من نفسه عبداً، والممدوح سيداً، ويصور طلبه بأنه زكاة من رزق الله لمولاه. ولمولاه الحرية في أن ينتشله من فاقته أو يمنعه خيره: «وللحضرة العالية الأفضلية، الرأي العالي في انتياش العبد من هذه الغمات، وكأن ما تهب له من العناية زكاة عما ملاها الله من رزق الزمان، ومكنه لها من

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٣٠.
(٢) ياقوت ــ معجم الأدباء ــ ص ١٥٧.
(٣) ياقوت ــ معجم الأدباء ــ ص ١٨١.
(٤) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٤٠.

قواعد العز والسلطان، وتقرباً إليه جل اسمه، إذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان»[1] وفي ختام رسائل أخرى، يتخفف من التصريح بطلب العطاء، ويدعو للدولة ولصاحبها بالبقاء: «فلا قلص الله ظلها عن هذا الثغر الذي يكاد ترابه بكرمها يورق، ونبته بحسنها يشرق»[2]، وفي أخرى يقول في ختامها: «والله تعالى يديم أيامها الزاهرة دوام نعمها المتظاهرة، فإن ذلك يرويه القريب والشاطن، ويتمثل به المقيم والظاعن»[3].

وفي رسائله التي سخر فيها من بعض معاصريه، يطلب في آخرها الرد على جوابه، حتى يجد الفرصة سانحة مرة أخرى في السخرية، أو لأنه لم يجد ما يختم به رسائله في الاستهزاء والتهكم، غير أن يطلب من المهجو إذا كان قادراً على الرد، أن يرد عليه ويتجاوب معه، حتى تظل المعركة الساخرة دائرة، ولعلمه عدم قدرة خصمه على مجاراته، وأنه لن يتجاسر بالرد عليه.

ويختم ابن أبي الشخباء بعض رسائله بآي من القرآن الكريم، أو بأبيات من نظمه، وتدور الآيات والأبيات حول الفكرة العامة للرسالة، يصور في بعض أبياته التي ختم بها رسائل المدح والعطاء، جزاء المحسنين، وثواب الكرماء، كما يؤكد على شجاعتهم وهو لا يأتي في أشعاره التي يختم بها رسائله بجديد لم يسبق ذكره في رسالته، بل يدور في دائرة الأفكار المنثورة في الرسالة.

والكاتب ابن أبي الشخباء لا يطيل في خواتيم رسائله، بل يأتي الختام

---

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٤٣.
(٢) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٤٦.
(٣) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٤٤.

ـ عادة ـ في عبارات بليغة موجزة، نجح الكاتب من خلالها في أن يشعر القارىء بأن الرسالة أوشكت على الانتهاء، وأنه لم يبق منها شيء، وكانت خواتيم رسائله ملتحمة التحاماً فكرياً، مع الفكرة العامة للرسالة، مقرناً بعض خواتيم رسائله بالدعاء لله، حيث يغلب الطابع الديني في بعض خواتيم رسائل ابن أبي الشخباء.

وخواتيم الرسائل يدل على مقدرة الكاتب على انتقاء ألفاظه المعبرة عن الختام، واختيار العبارات التي تشعر بالنهاية وبقرب تمام الكلام، وتشعر بأن الفكرة أضحت ليست في حاجة إلى توضيح آخر، وأصبح السامع لا ينتظر شيئاً آخر، ولم يبق شيء في حاجة إلى تفسير أو تعليل، وقد فرغ الكاتب من عرض أفكاره. وفي خواتيمه يجمل ما فصّله ثانية، ويطلب ما يريده في إيجاز، ويخلص إلى بغيته في كلمات قليلة.

والختام يقول فيه الهاشمي: «والختام أن يكون الكلام مؤذناً بتمامه، بحيث يكون واقعاً على آخر المعنى، فلا ينتظر السامع شيئاً بعده، وعلى الشاعر والناثر أن يتأنّقا فيه غاية التأنق، ويجوّدا فيه ما استطاعا لأنه آخر ما ينتهي إلى السمع، ويتردد صداه في الأذن، ويعلّل بحواشي الذكر فهو كمقطع الشراب، يكون آخره ما يمرّ بالفم، ويعرف على الذوق، فيشعر منه بما لا يشعر من سواه»[1]، والختام: «آخر ما يبقى من الأسماع، وسبيله أن يكون محكماً»[2]، «وينبغي أن يكون الختام بمعان سارة فيما قصد به التهاني، والمديح، وبمعان مؤاسية فيما قصد به التعازي والرثاء»[3].

---

(١) الهاشمي ـ جواهر الأدب ـ ص ٣٩.

(٢) ابن رشيق ـ العمدة ـ ١/ ٢٣٩.

(٣) حازم القرطاجني ـ منهاج البلغاء ـ ص ٣٥٩.

ولم يكن ابن أبي الشخباء تقليدياً في خواتيم رسائله، فلم يلجأ إلى العبارات المحفوظة كما كان يفعل الكتّاب في عصره، حين أكثروا من ذكر: (إن شاء الله أو بمّن الله ونعمه)، أو بقولهم: والله المستعان أو السلام أو الحمد لله أولاً وآخراً باطناً وظاهراً أو والله أعلم، بل كان الختام في رسائل ابن أبي الشخباء جملاً بليغة تؤكد معنى الرسائل وتساير الفكرة العامة، وتدور في فلكها، وتدل على تمام المعنى، وعلى أن الكلام لا يحتمل أكثر مما سبق ذكره.

(ب)

القرآن في رسائل ابن أبي الشخباء

ازدانت معظم رسائل ابن أبي الشخباء بآيات من القرآن الكريم، فقد ضمّت رسائله بعض آي القرآن الكريم بلفظها، ومرة بالاقتباس من معانيها، ولم يكن ابن أبي الشخباء في هذا رائداً بل كان يتأثر بما جاء في رسائل الكتّاب، من قبله، كما كانت هذه الظاهرة تنسحب على كتّاب الرسائل في العصر الفاطمي كله، الذين تأثروا بكتّاب الرسائل السابقين لهم.

وحفظ القرآن الكريم أو معظمه أمر ضروري للكاتب، وقد أشارت مصادر عديدة إلى هذا وجعلته أداة هامة من أدوات الكتابة، وقد أشار إلى ذلك «القلقشندي» في «صبح الأعشى» وصاحب «حسن التوسل»، وصاحب «المثل السائر»، «وأدب الكاتب»، ومصادر أخرى، «فلا بد للكاتب من حفظ كتاب الله العزيز، وإدامة قراءته، وملازمة درسه، وتدبّر معانيه، حتى لا يزال مصوّراً في فكره، دائراً على لسانه، ممثلاً في قلبه ويكون ذاكراً له في كلامه، وكل ما يريد عليه من الوقائع التي يحتاج إلى الاستشهاد بمن فيها»[1].

(١) القلقشندي ـ صبح الأعشى ـ الجزء الأوّل ـ ص ١٨٩.

وقد أجاز العلماء الاستشهاد بالقرآن الكريم في الرسائل وغير الرسائل، ما دام لم يُحَلْ عن لفظه، ولم يتغيّر عن معناه، ويروي القلقشندي في صبح الأعشى أحاديث لرسول الله الكريم استشهد فيها بالقرآن الكريم، كما فعل ذلك أبو بكر وعمر وعلي والمغيرة بن شعبة والحسن بن علي، ويروى أن الحسن البصري ذكر ما يدل على كراهية ذلك، ولم يزل العلماء وفضلاء الكتّاب يستشهدون بالقرآن الكريم في مكاتباتهم في القديم والحديث من غير نكير، وذهب بعضهم: «إلى أن كل ما أراد الله به نفسه لا يجوز الاستشهاد به، وأما تغيير شيء من اللفظ أو إحالة معنى عما أريد به فلا يجوز بحال»[1].

ويأتي القرآن الكريم في رسائل الكتّاب على وجهين: أولهما: الاستشهاد بآيات القرآن الكريم: «وهو أقلها وقوعاً في الكلام، ودورانا في الاستعمال، وهو أن يضمّن الكلام شيئاً من القرآن الكريم، وينبّه عليه، كأن يقول الكاتب وقال عز اسمه، وقال سبحانه وقال الله عز وجل. . .»[2].

وثانيهما: وهو الاقتباس، وهو أن يضمّن الكلام شيئاً من القرآن ولا ينبّه عليه[3]، وأكثر ما جاء في رسائل ابن أبي الشخباء يقع تحت النوع الثاني من الاستشهاد.

أما النوع الأول من الاستشهاد بالقرآن الكريم في رسائل ابن أبي الشخباء[4]، فقد جاء في رسالته التي يهنىء فيها بكسر «أتسز» حين

---

(١) القلقشندي ــ صبح الأعشى ــ الجزء الأوّل ــ ص ١٩٠ و ١٩١.
(٢) القلقشندي ــ صبح الأعشى ــ ١/١٩٤.
(٣) القلقشندي ــ صبح الأعشى ــ ١/١٩٧.
(٤) ياقوت ــ معجم الأدباء ــ ص ١٦٥.

يقول في ثنايا رسالته: «وأشبع فيه قوله تعالى: ﴿فأمليت للكافرين، ثم أَخَذْتُهم فكيف كان نكير﴾[1]، ولم يأت في غير هذه الرسالة فيما وصل إلينا من رسائله استشهاد من هذا اللون، عند ابن أبي الشخباء.

وأما عن الوجه الآخر وهو الاقتباس، فقد جاء في أكثر من موضع في رسائل ابن أبي الشخباء، فذكر قول الله تعالى، في تهنئة بالانتصار[2]، ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾[3]، ﴿وكان فضل الله عليك عظيماً﴾[3].

ومما يعاب على استشهاد ابن أبي الشخباء للقرآن الكريم، ما جاء ضمن رسالته التي يسخر فيها من بعض القواد فأتى بقوله تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلّا بإذنه﴾[4]، وهي الآية التي يقصد بها الله ــ سبحانه وتعالى ــ ذاته العلية، وهو مما لا يجوز للكاتب أن يستشهد به إلّا إذا أضافها إلى الله سبحانه، أما أن ابن أبي الشخباء، وهو في معرض تعديد صفات القائد الذي يستهزىء به، يأتي بالآية السابقة، فما لا يجوز الاستشهاد به، كذلك الآية التي أتى بها في رسالته[5]، أيضاً وهي: ﴿والسموات مطويات بيمينه﴾[6]، عندما يعدد صفات القائد الذي يسخر من غفلته وكبره، وربما يكون ذلك أنكى في السخرية، ويدل على فساد عقيدة المهجو لا الكاتب.

وابن أبي الشخباء في رسالة أخرى، يصور فيها مجلساً من مجالس الطرب والأنس والشرب، يصوره بالجنة في قوله تعالى: ﴿وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة

---

(١) سورة الحج: الآية ٤٤.
(٢) ياقوت ــ معجم الأدباء ــ ص ١٦٣.
(٣) سورة الجمعة: الآية ٤، سورة النساء: الآية ١١٣.
(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.
(٥) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٣٠.
(٦) سورة الزمر: الآية ٦٧.

ولا ممنوعة﴾[1]، وهو مما لا يجوز الاستشهاد به للفارق بين الصورتين، صورة الجنة وأهلها وصورة مجلس الشراب والمجان، يعاب عليه عند البعض، وقد يكون هذا الجانب التخييلي مهماً لا ينبغي أن يعاب عليه، بل يحمد له في فنه...

ويأتي القرآن في بعض رسائل ابن أبي الشخباء في مطالعها، فيبدأ رسالة[2] من رسائله بقول الله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم﴾[3].

وقد ضمّن الكاتب ابن أبي الشخباء القرآن في الأماكن التي تتفق ومعانيه في داخل رسائله، اللهم إلاّ في الحالات التي كان لا يجوز للكاتب أن يستشهد بالقرآن الكريم والتي سبق الإشارة إليها، وفيما عدا ذلك فقد حقق لرسائله حين ضمنها القرآن، فخامة وجزالة ورونق: «من شرف الاستشهاد بالقرآن الكريم إقامة الحجة، وقطع النزاع، وإذعان الخصم»[4].

ولم يكثر ابن أبي الشخباء من الاستشهاد بالقرآن الكريم أو تضمينه، ولم يتكلف في ذلك، وكان في رسائله من المواقف الكثيرة التي تستدعي الاستشهاد بالقرآن مثل حديثه عن غدر الدنيا، ومحن الزمن، وحثه على الصبر والتحمل أو في دعائه لأصدقائه أو عند حديثه لمن يأكل لحم أخيه حياً،

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٣٢ و ٣٣.

(٢) ياقوت ـ معجم الأدباء ـ ص ١٦٤.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٧٣ و ١٧٤.

(٤) القلقشندي ـ صبح الأعشى ـ ١٠/١٩١.

ويسعى في الأرض فساداً، ولكنه كان يعرض فكرته بأسلوبه الخاص، وكان قليل الاستشهاد بالقرآن، وقد سار الكاتب على النهج الذي سار عليه غيره من الكتاب في استشهادهم بالقرآن، فقد كان حفظ القرآن، وتفهّم معانيه والاستشهاد به في رسائل الكتّاب من الأمور الهامة والبارزة في رسائلهم الإخوانية والديوانية. . .

(ج)

الأمثال في رسائل ابن أبي الشخباء

تُعدّ الأمثال في رسائل الكتّاب من مظاهر ثقافة الكاتب العربية، فقد حفظ كثير من الكتّاب الأمثال كما حفظوا القرآن وبعض الأحاديث وبعض أشعار العربية. والأمثال العربية السائرة، لها قصص ضربت فيها، وتحتوي مضامين ترمي إليها. والكاتب يأتي بالمثل في المكان الذي يتطلب وجوده، حين يلحظ تشابهاً بين الأمرين، وتقارباً بين الموقفين.

والمثل يؤدي جزءاً من المعنى، ويتقدم بخيوط الفكرة إلى الأمام، ويؤكد الفكرة التي ذكرها الكاتب، وقد ذكرت معظم مصادر الأدب أن حفظ الأمثال العربية من مصادر ثقافة الكاتب، وأشاروا إلى ضرورة الإكثار من حفظ الأمثال.

ويقول القلقشندي في صبح الأعشى: «إن الأمثال على ضربين: قريب الفهم بظهور معناه، وكثرة دورانه بين الناس، أو بعيد الفهم لخفائه، وقلة دورانه بين الناس»[1].

(١) القلقشندي ـ صبح الأعشى ـ ١٠/٢٩٧.

ولا يحق للكـاتب أن يحـوّر في الأمثـال، ولا يجـوز لـه أن يبـدّل في ألفاظها، ولا يغيّر في أوضاعها لأنها بذلك عرفت وشهرت.

والأمثال في رسائل ابن أبـي الشخباء قليلة، وقد ورد بعضها في رسـالته الجوابية التي ردّ فيهـا على رسالـة أبـي الفرج المـوفّقي، شرح فيهـا النصوص التي غمضت، واستعرض خلالها ثقافتـه العربيـة المتنوعـة المصادر، والقـرآن والحـديث والتـاريـخ الإسـلامي، ومن معـرفتـه بـطبـاع الحيـوان وغيـر ذلـك من الأمور.

ومن هـذه الأمثـال التي ذكـرهـا ابن أبـي الشخبـاء في رسـالتـه قـولـه: «يتضوعن النشر العبقس، ويرضعن مراضـع ثعالة المجاشعي»[1]، وأما قـوله: «يتضـوّعن النشر» فمن أمثـال العـرب: هـو أخسـر صفقـة من شيـخ مهـو[2]، وهـو بطن من عبـد القيس[3]، «وكان من خبـره أن إيَادًا كـانت أحسن العرب، فـوفد وافـدهم إلى الموسم بسـوق عكاظ، ومعـه حلة نفيسة فقـال: يـا معشـر العـرب، من يشتـري مني مثلبـة قـوم لا تضـرّه بحلتي هـذه؟ فقـال الشيـخ المهوي: أنا أشتريها، فقـال الأيادي: أشهـدكم أني قد بعت فسـاء أياد لـوافد عبـد القيس بحلتي هذه، وتصـافحـا وافتـرقـا متـراضيين، وقـد شهـد عليهمـا أهل الموسم»[4].

---

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٥٦، ياقوت ــ ص ١٥٩.

(٢) المثل في الـدرة الفـاخـرة ــ ص ١٤٠، (أحمق من . . .)، والعسكـري ٣٨٨/١، والـزمخشري ٨٢/١، وثـمار القلوب ــ ص ١٠٦، واللسـان (فسـا) واسم الشيـخ عبد الله بن بيدرة، وفي نقل ابن بسّام إيجاز مخلّ، بينما ذكر ياقوت في معجم الأدباء ــ المثل وقصّته كاملة بلسان ابن أبـي الشخباء.

(٣) عبد القيس بن أفصى بن دُعي بن حديلة بن أسد بن نزار بن معدّ بن عدنان.

(٤) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٥٦، ٦٥٧، وياقوت ــ ص ١٦٢.

وأما قوله: «أعطش من ثعالة المجاشعي»[1]، فمن أمثال العرب فيما ذكره الكلبي قوله: «هما رجلان من بني مجاشع عطشا فشرب كل منهما بول صاحبه فلم يغن عنهما شيئاً، وماتا عطشاً[2].

الأمثال في رسائل ابن أبي الشخباء غريبة، وقصصها غير أخلاقية، وهي قليلة، بل نادرة، وهو لم يأت بها رغبة أو طواعية، ولكنه يضطر إلى شرحها وتفسيرها عندما طلب منه ذلك، وإنما طلب منه تفسيرها لغرابتها وقلة دوران قصصها على الألسنة. ولم يذكر ابن أبي الشخباء الأمثال في رسائله، بل هي التي ذكرت له، ولم يستشهد ابن أبي الشخباء بالأمثال، بل كان يشرحها ويفسّرها، وهذا يدلّ على معرفته بالغريب من الأمثال، فما بالنا بمعرفته بالمألوف منها، والجارية مجرى الأقوال السائرة، والأمثال في رسائله لا تشكّل ظاهرة واضحة وضوح ظاهرة تضمين الشعر في رسائل ابن أبي الشخباء الإخوانية.

(د)

الشعر في رسائل ابن أبي الشخباء

من الأمور الهامة التي يجب توافرها في كتّاب الدواوين في العصر الفاطمي، وأشار إليها القلقشندي والمقريزي وابن الأثير والصيرفي، وغيرهم، أن يكون الكاتب حافظاً لكتاب الله تعالى، وحافظاً للأشعار، راوياً للكثير منها[3]. ولما قدم القاضي الفاضل مصر، راغباً الانخراط في سلك الكتّاب،

---

(١) ورد المثل في الدرة الفاخرة ــ ص ٣٠٩، والعسكري ٢/٧٠، والميداني ٢/٤٩، والزمخشري ١/٤٨.

(٢) الرسالة لابن بسّام ــ ص ٦٥٧، وياقوت ــ ص ١٦٣.

(٣) القلقشندي ــ صبح الأعشى ١/٩٦، والخطط للمقريزي ٢/٢٤٤، د. محمود كامل حسين: أدب مصر الفاطمية ــ ص ٣١٨.

سار إلى ديوان الإنشاء، وكان ابن الخلال على رأسه، فأمره أن يحل الشعر أكثر من مرة حتى يتدرب على فن الكتابة، ويقول القاضي الفاضل في ذلك: «فلما حضرت الديوان، ومثلت بين يديه (يقصد ابن الخلال) وعرفته من أنا، وما طلبتي، رحّب بي وسهّل، ثم قال: ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات؟ فقلت: ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن، وكتاب الحماسة، فقال: في هذا بلاغ، ثم أمرني بملازمته، فلما ترددت إليه، وتدربت بين يديه أمرني بعد ذلك أن أحلّ شعر الحماسة، فحللته من أوله إلى آخره، ثم أمرني أن أحلّه مرة ثانية، فحللته»[1].

وكثر الشعراء في العصر الفاطمي كثرة ساعدت الدولة الفاطمية على وجودها، وكان للشعر سوق رائجة، وكان الفاطميون يشجعون الكتّاب والشعراء، وفي الخريدة ودمية القصر والمُغرب ووفيات الأعيان ويتيمة الدهر ذكر لشعراء كثيرين عاشوا في ظل الحكم الفاطمي. وكان بعض الكتّاب يجيد الشعر كما يجيد النثر، وكان لبعضهم ــ أيضاً ــ دواوين شعرية خاصة بهم، وكثيراً ما كان هؤلاء الكتّاب يزيّنون رسائلهم بشيء من نظمهم أو من نظم غيرهم من الشعراء، يؤكدون أفكارهم المنثورة، ويستعرضون مقدرتهم على نظم الشعر أو عل حفظه.

ويوضح ابن الأثير في المثل السائر، والقلقشندي في صبح الأعشى، كيفية استخدام الكتّاب للشعر من خلال رسائلهم، ويوضحان ــ أيضاً ــ فضل الشعر على النثر، وما يعود على الكاتب حين يزين رسائله بالشعر، وأوضح ابن الأثير سبيل ذلك «بأن يكثر الكاتب من الإدمان في قراءة الشعر ليلاً

---

(١) الدر النظيم من ترسّل عبد الرحيم ــ اختيار محيي الدين بن عبد الظاهر ــ ت: أحمد بدوي ــ نهضة مصر ـ ١٩٥٩م ــ ص ٤.

ونهاراً، وعليه حفظ الدواوين ذوات العدد، ولا يقنع بالقليل من ذلك، وعليه بنثر الشعر محفوظاً، حتى يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده، ولا يزال على ذلك مدة طويلة حتى تصير له ملكة»[1].

ويبيّن القلقشندي في صبح الأعشى طبيعة الشعر الذي يجب على الكاتب حفظه وخصوصاً أشعار العرب، وما توفرت دواعي العلماء بها على اختياره كالحماسة والمفضليّات والأصمعيات، وديوان هذيل، وما أشبه ذلك، وفيهم معانيها واستكشاف غوامضها، والتوفّر على مطالعة شروحها، ويلحق بذلك شعر المولدين من العرب، كجرير والفرزدق والأخطل، وغيرهم، وكذلك حفظ جانب جيّد من شعر المغلقين من المحدثين كأبي تمام ومسلم بن الوليد والبحتري وابن الرومي والمتنبي وغيرهم»[2].

والكاتب في حاجة إلى حفظ هذه الأشعار الرائقة، فيعود عليه من حفظ شعر العرب والمولّدين «غزارة المادة، وصحة الاستشهاد، وكثرة النقل، وصقل مرآة العقل، وانتزاع الأمثال، والاحتذاء في اختراع المعاني على أصح مثال، والاطلاع على أصول اللغة وشواهدها»[3]، ويعود عليه من حفظ أشعار المحدثين «لطف المأخذ وتوليد المعنى، لما في أسلوبهم من قرب من أسلوب الخطابة والكتابة»[4].

وحين يكثر محفوظ الكاتب من الشعر، تكثر عنده المعاني ويستعملها

---

(١) ضياء الدين بن الأثير ــ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ــ ت: د. أحمد الحوفي ــ د. بدوي طبانة ــ دار نهضة مصر ــ القاهرة. القسم الأول ــ ص ١٠٣.

(٢) القلقشندي ــ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ــ ١/ ٢٧١.

(٣) القلقشندي ــ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ــ ١/ ٢٧١.

(٤) القلقشندي ــ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ــ ١/ ٢٧٣.

في أماكنها حسب ما يقتضيه الحال، وتدعوه المناسبة إلى الاستشهاد أو الاقتباس.

وظاهرة تزيين الرسائل بالأشعار من الظواهر الملموسة في رسائل ابن أبي الشخباء فقد كان يُحَلِّي رسائله بأشعاره وأشعار غيره، ليؤكد الفكرة، وهذه الظاهرة لم تكن جديدة على النثر، أو على فن الرسالة، ولم يكن ابن أبي الشخباء رائدها، ولكنها ظاهرة عامة وشائعة في الكتابة الفاطمية، وقبل الفاطمية، كما كانت موجودة في بعض رسائل القاضي الفاضل في الدولة الأيوبية، ومن الملاحظ أن ابن أبي الشخباء قد أفرط في استخدام الشعر في رسائله، وتكاد تندر الرسائل التي تخلو من الأشعار، وغلب الشعر ـ أحياناً ـ في بعض رسائله النثر، فيبدأ رسالة بالمقدمة النثرية لينتقل بعدها إلى الشعر مباشرةً حتى ختام الرسالة.

وجاء الشعر في رسائل ابن أبي الشخباء ممثلاً للوجوه المتعددة التي أشار إليها النقاد، فمرةً يأتي الشعر في رسائله على هيئة الاستشهاد «وهو أن يورد البيت من الشعر أو البيتين، أو أكثر في خلال الكلام المنثور مطابقاً لمعنى ما تقدمه من النثر، ولا يشترط فيه أن ينبّه عليه بقال ونحو، كما يشترط في الاستشهاد بآيات القرآن والأحاديث النبوية فإن الشعر يتميز بوزنه وصيغته عن غيره من أنواع الكلام، فلا يحتاج إلى التنبيه عليه، وأكثر ما يكون ذلك في المكاتبات الإخوانية»[1].

والجزء الأعظم من الشعر في رسائل ابن أبي الشخباء من نظم الكاتب نفسه، والأقل من نظم غيره، وكان الكاتب يذكر أصحاب الأبيات التي يستشهد بها، ونادراً ما يغفل أسماء الشعراء، إمَّا لجهله بقائله، أو لشهرة البيت

(١) القلقشندي ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ـ ١/٢٧٤.

وذيوعه، أو لعدم شهرة صاحبه، وابن أبي الشخباء حين يستشهد بشعره يُكثر، وحين يستشهد بشعر غيره يُقِل، ووصل به الاستشهاد بشعره أحياناً إلى درجة القصائد الكاملة، وكان يستغل قالب الرسالة، في أن يرسل قصيدة له في أحد ممدوحيه، والكاتب حين يستشهد بشعره، لا يشير إلى نفسه، بل تلتحم الأبيات مع النثر التحاماً ظاهراً، ولم تخرج معاني الشعر عن أفكار الرسالة المنثورة حين يكون الاستشهاد بأبيات قليلة، وعندما تصل الأبيات إلى حد القصائد كانت تتركز المعاني حول الهدف الذي يقصده الكاتب، ويزيد في نظمه عن المنثور من الأفكار.

إن الأغراض التي تناولها الكاتب ابن أبي الشخباء في أشعار رسائله أغراض تقليدية بحتة، وهي الأشعار التي من نظمه، فلم تخرج هذه الأغراض عن معاني الشوق والعتاب ولم تخرج ــ أيضاً ــ عن فنون المدح بالكرم والشجاعة، وتأكيد عطاء الممدوح وسماحته واتساع فيضه، ومقدرته على أن يزيل الهم والغم من نفوس المكروبين، كما صور ابن أبي الشخباء في بعض أشعاره مجالس الأُنْس، وجلسات المجان، فصوّر الشراب والكؤوس، ولكنه لم يصل في تصويره هذا إلى ما وصل إليه الشعراء المجان المعروفون.

ولم يأت الشعر في رسائل ابن أبي الشخباء في مواطن معينة في رسائله، بل أُتي به مرة في مطالع الرسائل، وأخرى في ختامها، وأُتي به في معظم الأحوال في ثنايا الرسائل. وعادة يأتي الشعر على دفعات في داخل الرسالة الواحدة، حسب ما تستدعيه الفكرة، وحسبما تقتضيه الأحوال، وقد تخلو الرسالة كلها من الشعر على الإطلاق، وإنما مرجع ذلك إلى طبيعة موضوع الرسالة التي يكتبها ابن أبي الشخباء.

وقد سجل القلقشندي هذه الملحوظات على رسائل الكتّاب، فلم تكن

خاصة بابن أبي الشخباء وحده، ولكنه كان كاتباً استوفى عناصر الكتابة في عصره، ويضيف القلقشندي: «وربما كانت كل المكاتبة أو جلها شعراً، وقد يكون صدر المكاتبة شعراً وذيلها نثراً، أو العكس، وقد يكون طرفاها نثراً وأوسطها شعراً، وعكس ذلك حسب ما يقتضيه الترتيب، ويسوق إليه التركيب. وربما اكتفي بالبيت الواحد من الشعر في الدلالة على المقصد»[1].

ومن الشعر الذي جاء في ختام بعض رسائله:

فما ذاك من ذنب علي اجترمته ... إليه فيجزيني به حيثُ أعلم
ولكن إنساناً إذا ملّ صاحباً ... وحاول صرماً لم يزل يتجرَّم[2]

وفي رسالة أخرى يعتذر عن توديعه لبعض إخوانه، ويصوّر شعوره يوم فراقه فيقول:

وأخّرني يوم انطلاقك أن أرى ... على جمرات البين قلبي يُلذَّعُ
فؤاد إذا قيل الفراق تساقطت ... خفوقاً أواخي صبره تتقطَّعُ
وإنّي صليب العود في كل حادث ... ولكن أعوادي لنأيك خِرْوَعُ[3]

ويصور فرحته حين يخبره البشير بقرب عودة المسافر فيقول:

طَربتُ وقد جاء البشير بقربكم ... وذو الشوق عند اسم الحبيب طروب
وقمت إليه راشفاً من ترابه ... ثرىً لك يحلو رشفُه ويطيب[4]

ويصور مجلساً من مجالس الأنس، ويصوّر الجارية وهي تدور على الشاربين بالكأس، بأنها ظبي قد كحّل بالسحر لحظاته وأطلق العقارب على

(١) القلقشندي ـ صبح الأعشى ـ ١٠/ ٢٧٥.
(٢) ابن بسّام ـ الذخيرة ـ ٤/ ٦٢٩.
(٣) المرجع نفسه ـ ٤/ ٦٣٠.
(٤) المرجع السابق ـ ٤/ ٦٣٠.

وجناته، ونظم السلوك في ثغره، وأنبت ثمر الصبا في صدره، يدير على مولاي كأساً:

إذا أَخَذَتْ أطرافُهُ من بحورها ... رأيتَ اللُّجَين بالمدام يُذَهَّبُ
كأنَّ بخديه الذي جاء حاملاً ... بكفّيه من ناجودها بات يُقْطَبُ[1]

وبمقارنة أشعار ابن أبي الشخباء في رسائله مع أشعاره خارج رسائله، نلحظ أنه لم يستوف أغراض الشعر كلها في الأشعار داخل الرسائل، بل أتى بالأغراض التي تتفق وموضوع الرسالة، فلم نجد فيها غزلاً أو هجاءً أو رثاءً، ولم نجد تصويراً لجمال الطبيعة، والكاتب يفضّل شعره على شعر غيره، فإذا وجد من نظمه ما يتفق ومناسبة الرسالة أتى به، وإذا تعذر ذلك جاء بشعر غيره... وهو في حالة استشهاده بشعر غيره لا يزيد على البيتين أو ثلاثة الأبيات، ويذكر اسم الشاعر في معظم الأحوال، ويغفله أحياناً.

ومن الشعراء الذين أكثر الشاعر من الاستشهاد بهم البحتري والمعتمد بن عباد وابن زيادة وجرير والنميري والفرزدق وابن بسّام واللاحي المؤنّب، ولم يستشهد بشعر لشعراء من الجاهلية، ربماً لجزالة ألفاظهم وضخامة معانيها، واختلاف ذلك مع سهولة ألفاظه ورقة معانيه وبساطة أفكاره.

والكاتب يستشهد بشعر البحتري في معرض المدح وطلب العطاء، ومنه قول البحتري:

يُنْزِلُ أهل الآداب منزلة الـ ... أكفاءِ إن ناهَزُوه في أَدَبِهْ
لم يُزْهِهِ عنهُم وهمْ مُوَقٌ ... في العين وطء الملوكِ في عَقَبِه[2]

(١) المرجع السابق ــ ص ٦٣٥.
(٢) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٤٠، ديوان البحتري ١/٢٤٣.

ومن قول المعتمد بن عباد جاء بقوله:

وأردتم تضييق صَدْرٍ لم يَضِقْ والشُمْرُ في ثُغْرِ الصدورِ تَحَطَّمُ[1]

ومن قول المعتمد أيضاً:

هذي المدامُ وهذا النُقل من جَسَدي غن لنفسك أشعاري بألحاني[2]

وللامي المؤنب:

غزال تمتعتُ في قُرْبِه ونازعني الكأس حتى غَلَبْ
إذا ما تَنَفَّسَ في نَوْمِه تَنَفَّسَ عن مِثل ما شرب
فيا ليلُ ليتكَ لا تَنْقَضي ويا صبحُ ليتَك لا تَقتربْ[3]

وعندما لا يذكر الشاعر يقول: «وأنشد قول القائلة:

وددت بأنّه ضَبٌّ وأنّي ضُبَيْبَةُ كُدْيَةٍ وَجَدَتْ خلاء»[4]

أو يقول: «وإني وإيَّاهم كما قال الأول:

لم ألق بعدهُم قوماً فأخبرَهم ألا يزيدهُم حبّاً إليَّ همُ»[5]

---

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ٤/٦٤٣، ديوان المعتمد بن عباد ــ ص ٦٧، وقلائد العقيان ــ ص ١٦.

(٢) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٤٣.

(٣) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٤٨ و ٦٤٩.

(٤) ابن بسّام ــ الذخيرة، وينسب الجاحظ وياقوت البيت لحُبّى المدينة (وهي حُبّى بنت الأسود من بني بحتر، وكان حريث بن عتاب الطائي يهواها، فخطبها ولم ترضه وتزوّجت غيره من بني ثعل فطفق يهجو بني ثعل، فكانت تهوى ابن أم كلاب، وفي ذلك يقول هدبة بن خشرم العذري:

فما وجدت وجدي بها أم واجد ولا وجد حبى بابن أم كلاب

(٥) قائل البيت هو زياد بن منقذ الحنظلي أخو المرار العدوي، ونسبه البغدادي في الخزانة =

أو يقدم للأبيات بقوله، كما قيل:

خِـرْقٌ إذا اقـضـي الـسـمـاطُ بـه كَـشُـرَ الـعـشـارُ وطـبَّـق الـزلـلُ
وإذا الـسـريـر سـمـا بـقـعـدتـه غَـرَيَتْ بـظاهـر كفـه الـقُبَـلُ[1]

إن المناسبة تفرض نفسها على الكاتب في اختيار الشعر، فكان يضطر إلى ذكر البيت حتى ولو يجهل صاحبه، ولم ينوع الكاتب في استشهاده من شعراء العرب، ولم يلهث وراء عيون الشعر العربي، ومع ذلك فقد ظهر الفارق الفني واضحاً بين شعره وشعر من استشهد بهم أمثال البحتري والفرزدق وجرير.

والكاتب يستعرض معرفته بالشعر القديم في بعض رسائله، فنراه يفسّر معنى (قدوره عمّارية) فيستشهد بقول الفرزدق:

لَوْ أَنَّ قِدْرَاً بَكَتْ من طول ما حُبسَت عن الحقوقِ بَكَتْ قِدْرُ ابن عَمَّارِ[2]

ويفسر معنى (عطسات جواريه أسديّة) ويأتي بالبيت الذي يذكر فيه الشاعر أسدية تعطس. كذلك فعل في تفسيره «تهوَيْن لو خُلِقَ الرجالُ خلق الضباب» و«يتضوعنّ النشر العبقسي»، و«يرضعن مراضع ثعالة المجاشعي» فيأتي بشعر الفرزدق. ولأبي خالد النميري ولحُبَّى المدينةِ ولجرير.

وفي كل هذه المواطن السابقة كان الشاعر يخضع للحالة الأولى من استخدام الكتّاب للشعر وهي حالة الاستشهاد به، أما عن الحالة الثانية وهي

= ٢/٣٩٤، إلى المرار نفسه، وكان من مناسبة القصيدة أنّ زياد بن منقذ رحل إلى صنعاء فلم يحمدها، فقال ذلك الشعر يذمُّها ويتشوق إلى وطنه.

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ٤/٦٣١.

(٢) ياقوت ــ معجم الأدباء ــ ٩/١٥٩.

التضمين، فلم يكثر الكاتب ابن الشخباء من ذلك اللون، ولم يعثر في رسائله إلاَّ على مواقف قليلة بل نادرة اعتمد الكاتب فيها على تضمين الشعر، وذلك في رسالته التي كان يدافع فيها عن نفسه، ويصوّر نفسه بأنها «ترى النعم مع المهانة نقماً، وتجد طعم العيش مع عدم الإنصاف علقماً» فيأتي بشطر للمتنبي: «لكل امرىء من دهره ما تعوّدا»[1]، وأما عن التضمين ببيت كامل، فقد استشهد القلقشندي برسائل القاضي الفاضل[2]، التي استوفت هذه الملحوظة.

أما عن الحالة الثالثة في استخدام الكتّاب للشعر في رسائلهم، وهي ما تعرف (بالحل) وهو أن يعمد الكاتب إلى الأبيات من الشعر ذوات المعاني يفصلها من عُقل الشعر، ويسكبها في كلامه المنثور»[3]، ويذكر القلقشندي ما ذكره صاحب المثل السائر من مراحل هذه الحالة، ويذكرها ابن الأثير مفصلة في مثله السائر: ينقسم (الحل) إلى ثلاثة أقسام «الأول منها وهو أدناها مرتبةً أن يأخذ الناثر من الشعر بيتاً ينثره بلفظه من غير زيادة، وهذا عيب فاحش، والثاني وهو وسط بين الأول والثالث في المرتبة وهو أن ينثر المعنى المنظوم، ببعض ألفاظه، ويعزم عن البعض بألفاظ أخر، وهناك تظهر الصنعة في المماثلة والمشابهة، ومؤاخاة الألفاظ الباقية بالألفاظ المرتجلة، وأما القسم الثالث وهي أعلى من القسمين الأولين، فهو أن يؤخذ المعنى، فيصاغ بألفاظ غير ألفاظه، فإن استطاع الزيادة على المعنى فتلك الدرجة العالية»[4]

---

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٦٠، (عجز البيت: وعادة سيف الدولة الضرب في العدا).

(٢) القلقشندي ــ صبح الأعشى ــ ص ٢٧٦.

(٣) المثل السائر ١/١٠٣، القلقشندي ١٠/٢٨٣، جواهر الأدب ــ ص ٣٣.

(٤) ابن الأثير ــ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ــ ت: د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة، القسم الأوّل، ص ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥.

وابن أبـي الشخباء حلّ بعض الشعر في رسائله، ولم ينثره نثراً، وخلط بين ألفـاظه وألفـاظ بعض الشعراء، مثـل وصفه لجمـال الساقيـات (وظبـي قد كحّل بالسحر لحظاته، وأطلق العقارب على وجناته)، ونظم السلوك في ثغره، وأنبت ثمر الصبا في صدوره[1]، وقد تبارى الشعراء في صيـاغة هـذه المعاني التي استفاد منها الكاتب في تصوير جواري مجالس المجون.

وقد أثير حول بعض أشعار ابن أبـي الشخباء تساؤلات وصلت إلى حـد الاتهام بالخلط، أو السرقة، حين وجد بعض النقاد تشابهاً بل تماثلاً بين أبيات لـه وأبيـات لغيـره، ويـرى الصيـرفي في الأفضليـات، أن ابن أبـي الشخبـاء وابن زيدون القرطبـي قد كانا في عصر، وإن لم يجتمعـا في مصر، فـلا أدري هل تسارقا أم توافقا[2]؟.

ومن ذلك قول ابن أبـي الشخباء الذي يتماثل مـع قول ابن زيدون:

لا زلـتُ مـخـفـوضَ الـعِـدا مـا عـشـتُ مـرفـوعَ الـبـنـى[3]

ومن هذا أبيات في وصف السيف سبقـه إليها ابن المحـرّق وابن نباتـة، ونثر لابن المملوك جاء فيه (سيف تقام الحدود بحده، ويجتمـع الماء والنار في غمده)، فيقول ابن أبـي الشخباء:

فـلم أَرَ مـاءً قبـلَه مُـتـرقـرقـاً يخـالـطه ذاك اللظى الـمتـلهّب[4]

وكما استفاد ابن أبي الشخباء من محفـوظـه للشعـر في نثـره، استفـاد من

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ١٣٤.
(٢) الصيرفي ــ الأفضليات ــ ص ٩٢.
(٣) المصدر السابق ــ ص ٩٣.
(٤) المصدر السابق ــ ص ٩٢.

محفوظه النثري في شعره، وأكثر الصيرفي من ذكر الأمثلة على الحالتين، مثل نظم ابن أبـي الشخباء لقولهم: (تهوى قناك الطير).

كـأن النسـورَ نـافست فيهم الثـرى فقد حصلت أجسامهم في الحواصل[1]

وقولهم: (لا يده نالت بظلم) يقول ابن أبـي الشخباء:

إذا هـو زاد الـظلم عنـا بعـدلـه غـدا مـالـه في كفّـه متـظلّمـاً[2]
يرى الذنب أن تسـطو يداه للمـذنب ويعتـدُّ جُـرْمـاً أن يعـاقب مجـرمـا

والكاتب ابن أبي الشخباء كان يتفنن في نقلته من النثر إلى النظم، فيقدم لذلك بعبارة من إنشائه، يراعي فيها ما يراعيه في كتابته عامةً، فيطابق ويجانس ويزاوج...

والكاتب يجدد في كل مرة يقدم بها للشعر داخل رسائله، نجده يقـول: كقـول المعتمد مثلاً، أو استحسن قول البحتري، أو غلظ عليه قَـول اللاحي المؤنب، أو عنيت بقول ابن بسّام، أو قوله: فـرجـع على فراق العـادة، واتبّاع قـول ابن ميّادة، وعنـدما لا يشيـر إلى صاحب الشعـر يقول: (واستحسن قـول فـلان، أو كما قـال الأول، أو كقول القـائلة). وفي شعره لا يقـدم لـه فالفكـرة متصلة والكلام لكاتب واحد.

ومن المـلاحظ أيضاً أن النثـر كان سـابقاً للشعـر في استعراض الفكـرة وتفسيرها، ولم يأت النثر خادماً للشعر، فالنثر هو الغـرض الأول في الرسـائل، وهو لغتها. والشـاعر كـان يلجأ في شعـره إلى الصنعة اللفـظية وإلى الاهتمـام بالزينة والإكثار منها، وإلى تمثل خصائص الشعر الفاطمي، ومن ذلك قوله:

---

(١) الصيرفي ـ الأفضليات ـ ص ٩٢.
(٢) الصيرفي ـ الأفضليات ـ ص ٩٢.

أَخـذتْ لِحـاظي من جَنَـا خَـدّيْـكِ أَرْشَ الـذي لاقـيتُ مِـن عينـيـكِ
هيهـاتَ إنّـي إن وَزَنْتُ بـمُهـجتي نَـظري إليك فقـد رَبحتُ عليـكِ
غُضي جفونَك وانـظُري تأثيـرَ ما صنعتْ لِحـاظُـكِ في بَنَـان يَـدَيـكِ
فسلكتُ في فيض الـدمـوع مَسَـالِكـا قَصُـرَتْ بهـا يـدُ عـامـرٍ وسُلَيْـكِ[1]

فلقـد طغى على شعر ابن أبـي الشخبـاء خصائص الشعـر الفـاطمي في البساطة والبعد عن التعقيد وسهـولة اللفظ وتجنب الفلسفـة والبعد عن الفكـرة الغامضة، والبعد عن الرمـز أو الإيحاء، والإكثـار من التلوين البديعي والتلوين الصـوتي، والتلاعب اللفـظي. وفي كثيـر من الأحيـان كـان شعـره أضعف من نثره، في داخل رسائله، وفي جميـع الأحوال استخـدم ابن أبـي الشخباء نثـره وشعره لتوضيـح هدفه ومراده، وإثبات قدرته على التعبير نظماً وشعراً.

والشعـر غالبـاً في الرسـائل لتـزيين الرسـالة «وقـد كـان بـديـع الـزمـان الهمذاني يزيّن برسائله الأشعـار»[2]، «ومن المعروف أن رسـائل بـديـع الزمـان الهمذاني غير مقاماته ومنها رسالته إلى الشيـخ أبـي القاسم الكرجي، ورسـالته إلى أبـي بكـر الخـوارزمي، وقـد جـرى بينهمـا نـزاع انتهى إلى منـاظـرتهمـا المشهورة في نيسابور حكم الجمهور لبديـع الزمان فاغتم الخوارزمي»[3].

وفي الرسائل غير الإخـوانية لابن أبـي الشخبـاء لم يذكـر فيها شعـراً لـه أو لغيره، فنراه يتحـدث بلسان صـاحبها، فـلا شعر ولا استشهـاد فهو يعبـر عن رأي الحاكم أو القائد.

---

(١) ياقوت ــ ص ١٥٣، والخريدة وعمر فروخ ١٩٧/٣. (الأرش الديّة وعامر بن الطفيل جاهلي شجاع جريء والسليك بن السلكة من الصعاليك المعروفين).
(٢) د. شوقي ضيف ــ الفن ومذاهبه في النثر العربي ــ ص ٢١٩.
(٣) د. مصطفى الشكعة ــ الأدب في موكب الحضارة الإسلامية ــ ص ٤٧٨.

ولقد أفاد ابن أبي الشخباء من محفوظه الشعري (وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده، ثم إجادة الملكة، وبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ترتقي الملكة الخاصة)[1].

من هذا يتضح أن الشعر في رسائل ابن أبي الشخباء من الظواهر اللافتة للنظر فقد استشهد به وضمَّنه وحلَّه، وقد سبقه إلى حل الشعر عبد الحميد الكاتب فيقول القلقشندي «أول من فك رقاب الشعر، وسرّح قيده إلى النثر عبد الحميد الأكبر كاتب بني أمية»[2]، وفك رقاب الشعر عند عبد الحميد لا يعني حلّه بل يعني إيجاد موسيقى في النثر تضاهي ما كان موجوداً في الشعر، ومن ينظر في رسائل أبي منصور الثعالبي والبسطامي والهمذاني وابن العميد والخوارزمي يجد أنهم قد زيَّنوا رسائلهم بأشعار من نظمهم أو من نظم غيرهم من الشعراء المعروفين. ولكن الملاحظ أن رسائل ابن أبي الشخباء أسرفت في الاستشهاد بالشعر، حتى يصح القول أنه لا تخلو رسالة إخوانية من رسائل ابن أبي الشخباء من شعره أو من شعر غيره. وإذا كان القاضي الفاضل قد تأثّر بابن أبي الشخباء، فإن الشعر في رسائل القاضي الفاضل أقلّ كثيراً من الشعر في رسائل ابن أبي الشخباء، ومن يرجع إلى مجموعة رسائل القاضي الفاضل (في الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم)[3] لا يعثر على أكثر من عشرين بيتاً، ذكرهم القاضي فيما يقرب من ست وعشرين رسالةً، ويلحظ أن الأبيات جميعها من نظم القاضي الفاضل، وكانت تأتي غالباً في مطالع رسالته.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ــ ص ٥٠٦.

(٢) القلقشندي ــ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ٢٨٢/١٠.

(٣) الدر النظيم في ترسل عبد الرحيم من اختيار محيي الدين بن عبد الظاهر. ت: د. أحمد بدوي ــ نهضة مصر ــ ١٩٥٩م.

البـــديـــع
في رسائل ابن أبـي الشخباء

زخـرت الكتابـة في عصر ابن أبـي الشخبـاء بألـوان البديـع المتنـوعـة، واهتم الكتّـاب في عصره بتـزيين الأسلوب إلى حد التكلف، وكـانت رسـائـل ابن أبـي الشخبـاء نموذجـاً معبراً عن هـذه الظاهـرة، وكـان من أبـرز مـا يميـز الرسائل ظاهرة (السجـع) و (الموازنة) و (المزاوجة)، و (التجنيس) و (الطباق) واستخدام المصطلحات العلمية.

أمـا عن ظـاهـرة استخـدام المصـطلحـات العلميـة في رسـائـل ابن أبـي الشخباء، فهي أثر لازدهار الحركـة العلمية، والمعـارف المختلفة في مصر الفاطمية، فقد عمـل الفاطميـون على تنشيط الحركـة العلمية والعقليـة، وكثر العلماء في مختلف فـروع العلم واللغة، وكـان الاهتمام بـالعلوم اللغويـة والنحـوية يـأخذ نصيبـه في هذه الحـركة العلميـة، وبلـغ من عنايـة الفاطميين بعلوم اللغة، أنهم وضعوا على رأس كل ديوان للإنشاء نحوياً لغوياً من العلماء المشهورين والمشهود لهم في عصـره، لمراجعـة ما يخـرج من رسائـل، حتى لا يقـع كاتبها في خـطأ لغوي، أو لحن أو تعبيـر ناب: (وقـد كان القـائم على ذلك يوماً هو النحـوي الذائـع الصيت طـاهر بن أحمـد المعروف بـابن بابشـاذ المتوفى سنة ٤٥٤هـ)[1].

(١) يراجـع في ذلك، فوات الوفيات ١/٢٣٥، وصبـح الأعشى ـ الجزء الأول.

وعرف في العصر الفاطمي غير ابن بابشاذ، الشابشتي المتوفى سنة ٣٩٠هـ، والقزاز النحوي ٤١٢هـ، والعميدي ٤٣٣هـ، وابن القطاع الصقلي ٥١٥هـ، وآخرون، وكان من أثر هذه الحركة العلمية أخذ الكتّاب بعض مصطلحات النحو والعلوم في رسائلهم، كما أخذوا بعض مصطلحات الفلسفة والعقائد الفاطمية الشيعية، ومن هذه الألفاظ والمصطلحات التي دارت في رسائلهم: الإمام والوصي والناطق، والمعاني الباطنة التي لا تصدر إلاّ عن كاتب فاطمي، واستخدام المصطلحات العلمية لم يكن نتيجة الحركة العلمية في العصر الفاطمي، فقد بدأ ذلك منذ القرن الثاني الهجري وازداد في القرن الثالث إلى حد كبير.

ولم يكثر ابن أبي الشخباء من الإشارة إلى المعاني الباطنة في رسائله، أو العقائد الفاطمية، وربما أشار إلى ذلك في رسائله التي لم تصل، وهذه المعاني قليلة في رسائله قياساً بالمصطلحات العلمية اللغوية والنحوية.

ومن إشارات ابن أبي الشخباء الفاطمية ما جاء في بداية رسالة له: (له الحمد وعلى آله والأئمة الأطهار)[1]، وقوله: (ولا زالت الدولة الفاطمية تحمد عزائمها التي شهدت لها بمداومة الكفاءة، وأنشدت من النصائح كل رميم رفات).

ويأتي ابن أبي الشخباء في رسائله ببعض مصطلحات العلوم مثل ما جاء في بداية رسالته: «لو لم تقضِ الشريعة ـ أطال الله بقاء سيدنا ـ برفض المقالة، عارية من البرهان، والدلالة، لكان ذلك في الغريزة راتباً، وفي حكم العقول واجباً»[2]، فقد تصنّع في رسالته ذكر المقالة والبرهان والواجب وحكم

(١) ياقوت ـ معجم الأدباء ـ ٩/١٦٩.

(٢) ياقوت ـ معجم الأدباء ـ ٩/١٨١.

العقول والدلالة.. ويرى د. شوقي ضيف أنه: «يسوق ذلك كله في خفة تجعلنا لا نلحظها»[1].

ويستهل ابن أبي الشخباء رسالته إلى الأفضل بن أمير الجيوش بن بدر الجمالي بتصنّعه لبعض المصطلحات في علوم النحو والتصريف فيقول: «خلّد الله أيام الحضرة الأفضلية، ما فضلت الأسماء حروفاً، وتقدمت واو العطف معطوفاً، ولزمت الأفعال اشتقاقاً وتصريفاً»، وفي رسالته إلى صارم الدولة بن معروف، يدعو له بالبقاء: «ما عظم رجب في الإسلام:

يُضيف إلى إنعام بِشْرِ وَجْهِه كما جمعَ الحُكمينْ في الحج قارنُ»[2]

إن ظاهرة استخدام المصطلحات العلمية في الرسائل ظاهرة عامة عند الكتّاب في عصر ابن أبي الشخباء وبعد عصره، فقد وجدت في رسائل القاضي الفاضل الذي أكثر من هذه المصطلحات العلمية، وربما كان الكاتب ابن أبي الشخباء يستعرض معرفته لبعض ألوان الثقافة المفروض على الكاتب معرفتها، كما كان يساير عادة الكتّاب في عصره، كما أنها تُعدّ استجابة للحركة العلمية التي ازدهرت في ظل الحكم الفاطمي، وهي بعد هذا كله خصلة من خصال الكاتب الفنية التي تسترعي الانتباه في رسائل ابن أبي الشخباء الإخوانية.

* * *

وَيُعَدُّ (السجع) من أظهر ما يلتزم به الكاتب ابن أبي الشخباء في رسائله والسجع قديم قدم الكتابة، «وهو في كتاب الله تعالى أكثر من أن يُعَدّ

---

(١) د. شوقي ضيف ــ الفن ومذاهبه في النثر العربي ــ ص ٣٦٢.

(٢) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ رسائل ابن أبي الشخباء ــ ٤/٦٥٢.

ويُحصى، وهو في النثر نظير التقفية في الشعر»[1].

وتختلف طريقة استخدامه باختلاف العصر واختلاف مقدرة الكاتب الفنية، وقد ورد السجع عند بعض الكتّاب طبيعياً غير مقصود، وقد جاء عند معظمهم متكلفاً كأنما هو الهدف الأول من نثر الكاتب، يحافظون عليه في كل عبارة، ويبحثون عنه، وكأنه هدفهم المفضل عن الفكرة ذاتها.

ويأتي السجع لتزيين الكلام وتنميقه: «لغرض أن يتمكن البليغ من ذهن السامع، فيما يورده من أساليب الكلام المستحسنة، فيحرك أهواء النفس، ويثير كامن حركاتها»[2].

وكان كتّاب الرسائل قبل عصور الصنعة، ينهجون منهج عبد الحميد الكاتب وابن المقفع في المحافظة على المعنى دون الاهتمام بزخرف اللفظ ومحسناته، ثم أخذ الاهتمام بالصناعة اللفظية يغلب حتى سيطر على المعاني، وأصبح الالتزام بالسجع أمراً واجباً في إنشاء الرسائل الديوانية والإخوانية، كما هو ظاهر في رسائل ابن أبي الشخباء ومعاصريه، ورسائل القاضي الفاضل وغيره من الكتّاب.

ويرى د. محمد كامل حسين: «أن هناك عدة خصال عامة يشترك فيها كل كتّاب هذا العصر الفاطمي، وأول خصلة من هذه الخصال، هي أن الكتّاب جميعاً، التزموا السجع في كتاباتهم وترى هذه الخصلة منذ ابتدأت الدولة الفاطمية إلى أن قوض صلاح الدين الأيوبي أركانها»[3]، وهي خصلة

---

(١) يحيى بن حمزة العلوي اليمني ـ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ المجلد الثالث ـ ص ٣٥٣.

(٢) السيد الهاشمي ـ جواهر الأدب ـ ص ٢٢.

(٣) د. محمد كامل حسين ـ أدب مصر الفاطمية، ص ٣٢١.

ظاهرة في رسائل ابن الصيرفي وابن أبي الشخباء ثم في رسائل القاضي الفاضل.

ويشترط في صحة السجع أن تكون (المفردات رشيقة، والألفاظ خدم المعاني، ودلّت كل من القرينتين على معنى غير ما دلت عليه الأخرى، حتى يكون السجع حلية ظاهرة في الكلام)[1].

ويغلب السجع على نثر ابن أبي الشخباء، ويلتزم به التزاماً دقيقاً لا يتحرر منه، ويفرضه فرضاً على كل معنى يصوغه، فيقول: «المودات إذا كانت متينة العقود، صادقة المشهود، موضوعة على أصل عريق، وأساس وثيق، لم تجزعها الشبهة المريضة، ولم تزلزلها الأباطيل المعترضة، وإن تناقلتها ألسن مختلفة، وعلتها برود من اللفظ مُفَوَّفة، ولما رأيت زيارة مولاي قد صارت مرقعة وجنوب مودته[2]، قد عادت مروّعة، وصرت أرى قوله متناقضاً، وماء البشر من وجهه غائضاً. . .»[3].

ويظل الكاتب ملتزماً بالسجع، فيأتي به بين كل فاصلتين، ولا يأتي به في أكثر من فاصلتين إلا نادراً، ولم تخل عبارة واحدة من الالتزام بالسجع، أو من التحرر من هذا القيد، فكان يخضع لما خضع له كل كتّاب عصره في القرن الخامس الهجري، ويأتي به أحياناً في داخل الجمل، ويحافظ على ذلك كأنه ملتزم بما لا يلزم من السجع، كقوله: «ما أخرني عن خدمة مولاي بالوداع أني متأخر في حلبة ولائه، ولا عار من ملابس إخائه وآلائه،

(١) السيد الهاشمي ــ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الثانية عشرة ــ ص ٤٠٥.

(٢) تقول العرب للاثنين إذا كانا متصافيين ريحهما جنوب، قال الشاعر:

لعمري لئن ريح المودة أصبحت شمالاً لقد بدلت وهي جنوب

(٣) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٢٧، ٦٢٨.

لـوددت لو صحبت ركـابه السعيـد إلى الصعيد، وقـطعت معه عـرض المهمـه البعيد، وزوّدت من مجاورته قلباً معموراً بودّه، ومن مشاهدته طرّفـاً لا صبر لـه من بعده»[1].

والسجـع في رسـائله لا يـزيـد على الفـاصلتين، والكـاتب يعـطف ـ أحياناً ـ على اللفظة المسجوعة بزميلتها لتتفق معها في وزنها وفي خاتمتها، وتأتي الجملة والقافية أطول من الأولى ـ غالباً ـ وهـذا مما قـد يحمده علمـاء البـلاغة والمؤرخـون للبديـع وفنـونه. فيقـولون: «وأحسن السجـع مـا تساوت فقره، ثم ما طالت فقرتـه الثانيـة، ثم ما طـالت ثالثـة، ولا يحسن عكسه، لأن السامـع ينتظر إلى مقدار الأول فإذا انقطـع دونه أشبه العثّار»[2].

ومما يُعاب على سجـع ابن أبـي الشخبـاء ما جـاء بـه أحيانـاً من جمل أقصر من الأولى المعطوفة عليها، والتي يبني معهـا سجعه: «ونعق غـراب بينه فقضّ أضلعاً، وأفاضت نفوساً وأدمعـاً»[3]، وهذا لم يكن غـالبـاً، بل حـافظ الكاتب على التساوي بين الفقرتين: (ليحدث التوافق بين الفاصلتين)[4].

وقد جاء السجـع بفنـونه جميعهـا المطرّف، والمـرصّـع، والمتوازي في رسائل ابن أبـي الشخباء الإخوانية. والسجـع المطرّف وهو ما اختلفت فاصلتاه في الـوزن واتفقتـا في التقفيـة: (همـع ومُصَـدّع)[5]، والسجـع المـرصّـع،

(١) ابن بسّام ـ الذخيرة ـ ص ٦٢٩.
(٢) أحمـد الهاشمي ـ جـواهر البـلاغـة ـ ص ٤٥ (يعني أنـه لا يحسن أن يؤتي في السجـع بفقـرة أقصر مما قبلهـا كثيراً، لأن السجـع إذا استـوفى أمـده مـن الأول لـطولهـا، ثم جاءت الثانية أقصر منها، يكون كالشيء المبتور).
(٣) ابن بسّام ـ الذخيرة ـ ص ٦٢٩.
(٤) الفاصلة في النثر كالقافية في الشعر.
(٥) ابن بسّام ـ الذخيرة ـ ص ٦٢٩.

وهو ما اتفقت فيه ألفاظ إحدى الفقرتين أو أكثرها في الوزن والتقفية مثل تقريره وتحريره[1]، والسجع المتوازي وهو ما اتفقت فيه الفقرتان في الوزن والتقفية مثل: (يشرح العذر ويبسطه، ويمحو الذنب ويحبطه)[2]، والأمثلة متعددة في رسائل ابن أبي الشخباء.

ويأتي الكاتب أحياناً باللفظة المسجوعة مطابقة زميلتها التي تتفق معها في الوزن والفاصلة ويلتزم الكاتب أحياناً بما لا يلزم، فإن كان السجع هو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير، فيأتي ابن أبي الشخباء أحياناً بسجع يحافظ فيه على اتفاق حرفين أو اتفاق حروف ثلاثة بين الكلمتين المسجوعتين.

ومن العيب ــ أيضاً ــ أن يأتي السجع في رسائل ابن أبي الشخباء في المقام الأول، والمعنى تابع له، والكاتب بدا اهتمامه بالزينة اللفظية، أكثر من اهتمامه بالمعنى، وكان يضطر إلى الترادف، وإلى تكرار المعنى ليصل إلى سجعته.

ولم يكن النقاد يحمدون ذلك، حتى في عصر الكاتب، ويرى الثعالبي: «أن المحمود في هذا الزمان أي في القرن الخامس المرسل، إذا اشتمل على شيء من السجع يجيء عفواً»[3]، ويقول ابن الأثير في المثل السائر: «أن الأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء، والنفس تميل إليه بالطبع[4]. ويقول

---

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٢٩.
(٢) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٢١.
(٣) محمد كرد علي ــ أمراء البيان ــ ص ١٤.
(٤) ابن الأثير: المثل السائر ــ القسم الأول ــ ص ٢١٠.

عبد القاهر الجرجاني: «فأما أن تضع في نفسك أنه لا بد من أن تجنس، أو تسجع بلفظين مخصوصين، فهو الذي أنت منه بغرض الاستكرار، وعلى خطر من الخطأ والوقوع في الذم»[1].

وكان المتقدمون لا يحتفلون بالسجع احتفال الكتّاب في عصر ابن أبي الشخباء، وكتّاب القرن الرابع من قبله، وقد استخدم ابن دريد السجع في أحاديثه، كما استخدم الهمذاني السجع في مقاماته، واستعمال كليهما لهذا الأسلوب المسجوع لا يدل على تقليد، إذ أن السجع كان هو الطابع السائد في النثر في القرن الرابع الهجري»[2]، «وقد هجم السجع هجوماً مُريعاً على الكلام المرسل فأضعف من قواه، ونال من قوامه بعد القرن الرابع»[3]، وكان السجع في رسائل ابن أبي الشخباء مقصوداً لذاته، وحُمّل المعنى عليه، ولم يكن السجع عنده عفواً بل التزم الكاتب به، وكانت ألفاظه رشيقة بسيطة، لا غرابة فيها أو تعقيد، حتى يُعدّ السجع من أظهر أدوات الكاتب الفنية في رسائله.

* * *

واهتم ابن أبي الشخباء **بموسيقى الجمل، وموسيقى الكلمات، فسعى إلى التجنيس وإلى الموازنة وإلى الازدواج**، فأحدث ملاءمات صوتية وإيقاعات موسيقية، فكان الجانب الأبرز يَنْصرف إلى البديع ولا ينصرف إلى

---

(١) عبد القادر الجرجاني ـ أسرار البلاغة ـ ت: هـ. ريتر ـ إستانبول ١٩٥٤م ـ ص ١٧.

(٢) د. محمد رشدي حسن ـ أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة ـ الهيئة المصرية ـ ص ١١.

(٣) أحمد أمين ـ ظهر الإسلام ـ ص ٦١.

المعنى، «ولا عجب في ذلك ولا استغراب فالعصر عصر الزينة»[1]، وكان في قِيَاسِه يُحافظ على السجع بين الكلمتين المتجانستين كما كان يحقق الطباق أيضاً بين اللفظتين المسجوعتين، ومن جناس ابن أبي الشخباء (مريده، جديده ـ السعيد، الصعيد والبعيد ـ والسنن والمنن).

وقد كان ابن أبي الشخباء يتصنّع في جناسه ويتكلّف فيه تكلفاً بادياً، ومثل ذلك ما جاء في رسالته إلى حازم الدولة بن معروف، «جاءته مناقب الحضرة العلية، فتم بها مناقب تميم، وحكمه لآل القعقاع أمر حكيم، ونصر لواء بني نصر، وأبدرت أهله بني بدر، ونبه منبه هوازن، وظهرت مزينة ومازن، وضحك لعبس عابس الدهر، وراحت الكملة كاملة الفخر، وزادت مغايظ الأزد، وقشرت قشير عن بلوغ المجد، وأغمدت سيوف بني غامد، وصارت همدان كالحجر الهامد، ومذحج كالعنس مذلّلة، وحمير بالراية الحمراء مظلّلة، وطوت طيىء عملها استخداء، وغضت جفنة جفونها استحياء»[2].

إن الكاتب استعرض في رسالته مهارته في تصنّع الجناس المتكلفة، الذي وصل به إلى هذا الحد، ويعلق د. شوقي ضيف بقوله: «أرأيت هذه المبالغة في استخدام الجناس والاحتيال عليه بذكر هذه القبائل الكثيرة؟ وأكبر الظن أن القارىء قد أحس روح أصحاب التصنع»[3].

* * *

ويعمد الكاتب ـ أحياناً ـ إلى إحداث **الموازنة** «والمراد بها أن تكون

---

(١) يحيى بن حمزة العلوي ـ الطراز ـ ص ٣٨.

(٢) الرسالة في ذخيرة ابن بسّام ـ ج ٤ ص ٦٥١.

(٣) د. شوقي ضيف ـ الفن ومذاهبه في النثر العربي ـ ص ٣٦٣.

ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في أوزانها، ومتى كان الكلام خارجاً على هذا المخرج كان نسق النظام رشيق الاعتدال، والموازنة هي أحد أنواع السجع، وكل موازنة سجع، وليس كل تسجيع موازنة، فالموازنة خاصة في اتفاق الوزن من غير اعتبار شريطة»[1]، وهي كثيرة في رسائل ابن أبي الشخباء الإخوانية مثل: «فاسدها وكاسدها، والكدر والخضر، والأكناف والأطراف...»[2].

والموازنة تساوي الفاصلتين في الوزن دون التقفية[3]، وقد ساعدت مقدرة الشاعر الفنية على إحداث هذه الموازنة في نثره، فكان ينثر المنظوم، أو ينظم المنثور ساعده في ذلك درايته بالشعر ونظمه.

* * *

ومراعاة النظير من العناصر الأساسية في فنون الكتابة عند ابن أبي الشخباء، وقد تأثر بذلك القاضي الفاضل في رسائله،«وهي أن يعني الكاتب، بأن يضم كل لفظة إلى أختها وكل صورة إلى شاكلتها، فإذا ذكر مفحص القطاة مثلاً ذكر السنابك والخيول، وإذا ذكر مسقط النواة ركز فيه الرماح والنصول»[4]، «وهذا أمر يعتمد على جودة تركيب المفردات، ومراعاة أن تكون كل كلمة منظومة مع ما يشاكلها ويماثلها وكما يكون في نظام العقد فإنه إنما يحسن إذا كان كل خرزة مؤتلفة مع ما يكون مشاكلاً لها، لأنه إذا حصل على هذه الهيئة كان به وقع في النفوس وحسن منظر في رأي العين»[5].

---

(١) يحيى بن حمزة العلوي ـ الطراز ـ المجلد الثالث ـ ص ٣٨.

(٢) ابن بسّام ـ الذخيرة ـ ص ٦٥١.

(٣) السيد أحمد الهاشمي ـ جواهر البلاغة ـ ص ٤٠٥ و ٤٠٦.

(٤) د. شوقي ضيف ـ الفن ومذاهبه في النثر العربي ـ ص ٣٦٢.

(٥) يحيى بن حمزة العلوي ـ الطراز ـ ٣/٢٢٥.

وتُسمى مراعاة النظير بالتناسب والتوافق والائتلاف، ومراعاة النظير يرمي أصحابها من الكتّاب إلى الجمع بين أمرين، أو أمور مناسبة لا على جهة التضاد، وذلك إما بين اثنين، وإما بين أكثر»[1]، ويلحق بمراعاة النظير، ما بنى على المناسبة في المعنى بين طرفي الكلام، ويعني أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى[2]، ومنه أيضاً قول ابن أبي الشخباء في رسالته: «يجود بريش أجنحة الكرام المقصوصة، ورأي يقطع والسيوف مغمودة»[3]، فراعى بين الريش والأجنحة المقْصُوصة، وبين الرأي القاطع والسيوف. . . وحين يذكر الشاعر نجوم الليل يذكر شمس النهار، «يخاف من نجوم الليل أن ترجمه، ومن شمس النهار أن تَصْطَلِمَهُ»[4].

* * *

(١) السيد أحمد الهاشمي ـ جواهر البلاغة ـ ص ٣٦٨.
(٢) السيد الهاشمي ـ جواهر البلاغة ـ ص ٣٦٩.
(٣) ابن بسّام ـ الذخيرة ـ ص ٦٤٤.
(٤) ياقوت ـ معجم الأدباء ـ ص ١٦٦.

التصوير والتشخيص
في رسائل ابن أبـي الشخباء

حظيت رسائل ابن أبي الشخباء الإخوانية بنصيب وافر من الزينة اللفظية،واهتم الكاتب كذلك بالتصوير والتشخيص، وكان هدفه إظهار براعته في استخدام أساليب الصنعة البديعية والبيانية، فلا تخلو جملة من جمله في رسائله من محسن بديعي أو من تصوير فني، وكان يشخص الجماد وينطق الأعجم، كما كثرت كنايته واستعاراته في رسائله أكثر من تشبيهاته.

أما عن **الاستعارات** فقد أفرط الكاتب في استخدامها إفراطاً ملحوظاً، إلى حد أنها صارت موضع اهتمامه أكثر من المعنى ــ أحياناً ــ ولم ترتبط أحياناً بالغرض الذي وضعت له، عندما يكثر الكاتب من تتابعها وتواليها في ملاحقة ظاهرة، وهي والحالة هذه لم تخدم المعنى، ولم تقدم فكرة جديدة، أو تتقدم بعناصر الموضوع خطوات إلى الأمام، بل أثقلت المعنى ــ غالباً ــ حين تعاقبت الصور المختلفة التي تدور جميعها حول فكرة واحدة.

وإذا أراد الكاتب تصوير كرم ممدوحه أتى بمجموعة من الصور المتعاقبة تا ور حول سعة العطاء والكرم والسخاء، وعندما يصور حسن الساقية يأتي بعدة صور متتالية في تراكيب متعاقبة، تؤكد جميعها جمال الساقية وسحرها. وهو في صوره الكثيرة هذه لا يأتي بصور جديدة مبتكرة، بل كانت صوراً تقليدية معروفة، سبقه إليها الشعراء والكتّاب. وربما أفاد الكاتب ابن أبي الشخباء حين نثر صور الشعراء في رسائله، ومن هذه الصور التي

تأخذ شكل العناقيد في رسائل ابن أبي الشخباء: «جلابيب عز يعتلق الدهر بأسبابه، وكرم يغرق البحر في عُبابه، ومجد تعشو النيرات إلى أنواره، وتعتصم الملوك الخائفة بجواره، ويجدون ترابها في أفواههم عسلاً، وفي أجفانهم كحلاً»[1]، وفي جمال الساقية تأتي هذه الصور المتتالية: «ظبي قد كُحل بالسحر لحظاته، وأطلق العقارب على وجناته، ونظم السلوك في ثغره، وأنبت ثمر الصبا في صدره. . .»[2].

ولا يكتفي الكاتب بهذه الصور المتتالية، بل يعقبها بنظم له، فيه صور كثيرة تدور حول ما ذكره في نثره.

ومن خصائص التصوير في رسائل ابن أبي الشخباء أنه استمد بعض صوره من البيئة العربية، واستمد معظم صوره من البيئة المعاصرة، فجمع في صوره بين الموروث والمعاصر، وقد غلب الموروث في نسجه على المعاصر مع كثرته، لميل الكاتب إلى التقليد، ولكثرة محفوظه ولرغبته في التكرار والترادف، والمبالغة في استخدام هذه الأساليب الفنية من الصنعة.

ومن صور ابن أبي الشخباء التي استمدها من الموروث، قوله: «تعيشوا عيش الغرثان الخميص، وتخطفكم العرب تخطف الأجدل للقنيص»[3]، ففيها من المفردات ما يحتاج إلى تفسير، وذلك يخالف طبع الكاتب في اختيار مفرداته، ومن صوره المعاصرة ما ينسجها من «الأشفار»

---

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٤٦.

(٢) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٣٤.

(٣) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٣٩، (الخميص يقال خمص الجوع فلاناً: أضعفه وأدخل بطنه في جوفه، فهو خميص، والأجدل: الصقر جمعه أجادل، القنيص: الصائد والمصيد، غرث غرثاً جاع فهو غرثان، ويقال: إمرأة غرثى الوشاح خميصة البطن دقيقة الخصر.

والإكليل والحلل الجلنارية، وكلها صور تتسم بالرفاهية، وتصور الحياة الفاطمية التي عرفت في معظم أطوارها بالبذخ والترف. . .

ومن صور ابن أبي الشخباء، ما يماثل الطبيعة المصرية، يذكر الكاتب فيها النيل: «وجميع سقي النيل برشفة من رضابه، وينشد إذا تراكضت خيول اللهو واللعب»[1].

وتدور معظم صور ابن أبي الشخباء في رسائله حول من يرسل إليه الرسالة، ليؤكد خصاله التي يرمي إلى إظهارها، ويتسم تصويره بالمبالغة التي تصل به إلى الحد غير المألوف.

ويميل الكاتب في بعض صوره في الاستعارات والتشبيهات إلى التفصيل بعد الإجمال وإلى تحليل الصور وتفسيرها. وكثيراً ما يخلع الكاتب على المعنويات صفات بشرية، يشخّصها ويجسّدها، فيجعلها حقيقة كائنة ملموسة؛ يجعلها إنساناً يسمع ويتكلم ويشعر ويحس ويتألم. وصُور الكاتب كلها واضحة بسيطة لا ميل فيها إلى الإغراب أو إلى التعقيد.

وعبرت الاستعارات في معظمها عن أحلام الشاعر ورغباته، حين صورت النموذج والمثل، في تصويرها للقائد الشجاع والمولى المعطاء، واستطاع من خلالها أن يبث مكبوت همومه، وأن يشير إلى المجتمع وحركته لدائرة، فيأتي بالصور المتعاقبة ومنها: حلبة الولاء، ملابس الإخاء، شن الغارة على الوفاء، لفحات اللوم الملتهبة، ماء بشره غضت بحوره، هبت على رياح صفاته، اهتدت ركائب الآمال الحائرة، الزمان عادانا بعجابه، الزمان

---

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ٤/٦٤٨.

نهشنا بأنيابه ، ومعظمها صور تقليدية ، وكان القليل من صوره يتسم بالعصرية والنادر منها ما يصور الطبيعة المصرية .

* * *

أما عن (الكنايات) في رسائل ابن أبي الشخباء، فكان الكاتب يلجأ إليها في التعبير عن أفكاره، وهي أقل من الاستعارات ولكن لا تخلو رسالة من مجموعة من الكنايات، وكان الكاتب يأتي بها أحياناً على شكل المجموعة المتتالية، فيأتي بالكنايات المترادفة المتتابعة، التي كان يشكّلها من عناصر تعتمد على الطبيعة . وأكثر كناياته أساسها الريح والغراب والحصا، والليل والقمر والصبح .

والكاتب يكني عن حالته وعن حاجته، ويصوّر عبوديته وتذلله، وكانت كناياته تتسم بالمبالغة في تصويرها المعنى، كما كان ينسج بعض كناياته من الأمثال والأقوال المشهورة . وتكثر كنايات الكاتب ـ غالباً ـ في معرض السخرية والتهكم، فنراه يستخف فيقول: «قطّب حاجبه، وزعزع مناكبه، أأنزل إليه وحي؟ أم عصب به أمر ونهي، أم رأى الملائكة المقربين تتشفّع به، والحور العين تشكو لاعج حبه، وثمار الجنة تدلّت إلى يده . . .»[1]، ويقول أيضاً: «أرى سلامه قد تقاصر طويله، وروض جوّه قد زاد ذبوله، وماء بشره قد غاضت بحوره، ونشاط لقائه قد استمر فتوره . . .»[2].

وكنايات الكاتب يغلب عليها البساطة، والمحافظة على الأسلوب، في سجعه وتوازنه . . .

* * *

(١) ابن بسّام ـ الذخيرة ـ ص ٦٣٠ .
(٢) ابن بسّام ـ الذخيرة ـ ص ٦٣١ .

أما عن (التشبيهات) في رسائل ابن أبـي الشخباء، فهي قليلة إذا قيست بـالاستعارات، أو الكنـايـات، ويصـح القـول أن تشبيهـات ابن أبـي الشخبـاء نادرة، كما خلت بعض رسائله من التشبيهات.

وتشبيهـاته سـطحية مـألوفـة، لا عمق فيها ولا إغـراب، ولم يتوسـل في أدوات التشبيه بغير الكاف وكأن، كما أنه لم يلجـأ إلى أنواع التشبيـه البلاغيـة المعروفة، مثل الضمني أو المقلوب، أو حتى التشبيه البليـغ.

واقتصر في تشبيهاته على تصوير حالته أو تصوير حالـة ممدوحـه، فيشبه نفسه بالعبد الذليل، ويشبه ممدوحه بالنجم وبالبحر، فكان يشكل تشبيهاته من أقرب العناصر الموجودة أمام عينيه، ومن تشبيهاته التي يصور فيها نفسه: «فأما حال العبد... فكأنه من العبودية يقتضي ألا يغبـه مزن مكـارمها»[1]، ويقـول مصوراً نفسه ــ أيضاً ــ أنا كالماء تتفرق أجزاؤه فيلتئم، وكعـرق الفصاد تمـزقه المبـاضـع فيلتحم[2]، وفي تصويـر مولاه يقـول: «سيدنـا كـالنجـوم تغيب ثم تـرتفـع»[3]. وهو في تشبيهـاته القليلة هـذه يفصل في المشبـه بـه، ويكثر من تعديد صفاته...

* * *

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ٤/٦٤٢.
(٢) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ٤/٦٥٢.
(٣) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ٤/٦٥٣.

بعض الظواهر الأسلوبية
في لغة ابن أبـي الشخباء

لغة ابن أبـي الشخباء في رسائله تزخـر بالعـديد من الـظواهر الأسلوبيـة التي تكـررت كثيراً، وتعـد سمات ظـاهرة في تـراكيبـه، وفي عبـاراتـه، التـزم الكاتب بها وحافظ عليها، ولم تخل رسالة من رسائله من بعض هـذه الظواهـر الأسلوبية المتكررة.

ويمكن حصر بعض هذه الظواهر فيما يلي:

١ ــ كثرة الجمل الاعتراضية كثرة ظاهرة.

٢ ــ إكثار الكاتب من ظاهرة التقديم والتأخير.

٣ ــ الحذف والذكر.

٤ ــ التفصيل بعد الإجمال، أو التفسير بعد الإبهام، وتعليل المقدمـات بمبـررات تصل بـه إلى نتـائـج منطقيـة تتفق مع المقـدمـات التي افترضها الكاتب.

٥ ــ استخدام أدوات العطف استخداماً مفرطاً، يتفق ورغبة الكاتب في التكـرار والترادف، والإكثـار من أدوات بِعَينِـها مثـل إذا أما ولمّـا وما وأنما...

٦ ــ التكرار والترادف والإطناب.

٧ ــ سهولة الألفاظ والبعد عن التعقيد والإغراب.

٨ ــ كثرة الجمل الشرطية.

وفيما يلي سنتناول بعض هذه الظواهر بالتفصيل والتطبيق.

أما عن (**الجمل الاعتراضية**) في رسائل ابن أبي الشخباء، فيلاحظ أنها تأتي عادة في بداية رسائله، أو في مطالعها وافتتاحياتها، ونادراً ما تأتي في داخل الرسائل وفي صلبها.

وهذه الجمل الاعتراضية لها سمات خاصة بالمعنى وأخرى خاصة بالتركيب، أما من حيث المعنى، فقد وردت هذه الجمل الاعتراضية للدعاء للممدوح، الدعاء له بطول البقاء في الحكم، والدعاء بدوام النعمة والعز، واستمرار السلطان. ولم ينس الكاتب ذكر هذه الجمل كلما ذكر القائد أو الأمير أو السلطان.

أما من حيث التركيب فعادة ما تحتوي هذه الجمل على ضمير يعود على الممدوح، مثل قول الكاتب: «وما عهدته ــ أعزّه الله ــ تزدهيه الشبهة وتستخفه»[1]، ويكثر الشاعر من استخدام الجمل الاعتراضية عادة، بعد اللفظة الأولى من الرسالة، مثل قوله: «الخبرة ــ أطال الله بقاء سيدنا ــ تجيء من غير الأمر المختار»[2]، وكثيراً ما كان يعترض الكاتب بالجملة الدعائية بين ركني الجملة الاسمية، ويأتي بها بعد الجملة الفعلية. أما في الجملة الإسمية فكما أشير إليه في المثال السابق (الخبرة...)، وأما في الفعلية مثل قوله: (أنبئت ــ أطال الله بقاء مولاي ــ بشيء أنا فيه مُكذّب ومُصَدّق)[3]، ويفصل الكاتب بين المبتدأ والخبر بجملة اعتراضية يدعو فيها

---

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٣١.

(٢) المرجع السابق ــ ص ٦٣٢.

(٣) المرجع السابق ــ ص ٦٤٨.

لمولاه، مع كون المبتدأ يعود على الكاتب نفسه تواضعاً وتأدّباً، فيقول: (أنا ـ أدام الله تمكن مولاي ـ كالماء)[1] وأحياناً يقدم الخبر على المبتدأ ويدعو بالجملة الاعتراضية الدعائية لمولاه، مثل قوله: «لدي ـ أطال الله بقاء مولاي الشيخ ـ نفس ترى النعم مع المهانة نقماً)[2]، وأحياناً يكني عن الممدوح السلطان بالحضرة العلية، وبالسيادة السلطانية، كما في قوله: (فلا برحت الحضرة ـ حرس الله أيامها ـ تفتر عن مباسمها الحسان)[3].

ويستغني الكاتب عن الجمل الاعتراضية الدعائية، حين يستهل الرسالة بالدعاء الصريح للقائد أو الأمير، كما أن رسائله خلت من الجمل الاعتراضية غير الدعائية، حتى في رسائله الساخرة.

وقد تبلغ الجمل الاعتراضية الدعائية عند الكاتب حداً من الطول ينسى معه انسجام الكلام، مثل قوله: (فقد دفعت ـ أدام الله جمال الدنيا ببقائها، وأعز كمال الدين ببأسها، وأصالة رأيها ـ خطباً جسيماً)[4]، فقد كرر الجمل وعطف عليها، وحافظ على السجع، في داخل جمله الاعتراضية الدعائية... ومعنى هذا أن الجمل الاعتراضية عند ابن أبي الشخباء، جاءت على نمطين جمل اعتراضية بسيطة التركيب، وجمل اعتراضية مركبة مسرفة في الطول ـ أحياناً ـ، أما الأولى فتتكون من المبتدأ والخبر، أو الفعل والفاعل، أما الثانية فغالباً ما يستخدم الكاتب العطف أو الربط بين عدة جمل.

وتكاد جمله الاعتراضية تخلص دائماً إلى الدعاء بطول البقاء ودوام

---

(١) المرجع السابق ـ ص ٦٥٢.
(٢) المرجع السابق ـ ص ٦٦٠.
(٣) المرجع السابق ـ ص ٦٥٠.
(٤) ياقوت ـ معجم الأدباء ـ ص ١٦٧.

السلطان كما أنها كانت تخدم موضوع الرسالة ـ أحياناً ـ فتسهم في تحقيق هدفه من مدح الممدوح أو التعبير عن ولائه وإخلاصه.

ومما يجدر الإشارة إليه أن بعض هذه الجمل الاعتراضية الدعائية، تكاد تذكرنا بجمل دعائية أخرى، وردت في رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، بل أن الكاتب يكاد أحياناً يقتبس هذه الجمل الدعائية لفظاً ومعنى.

ومن هذه الجمل: (ثبّت الله أركانها ـ خلّد الله سلطانها ـ مدَّ اللَّهُ ظلها على الكافة ـ أدام الله جمال الدنيا ببقائها ـ أطال الله بقاء سيدنا ـ خلّد الله أيامه).

* * *

ومن الظواهر البارزة في لغة ابن أبي الشخباء «التقديم والتأخير»، مثل قوله: «ما تنتهك للشرع فيه حرمات، ولا تسمع للأوتار نغمات، ولا تنطق باللغو أفواه، ولا ترشف رضاب الكؤوس شفاه»[1]، وقوله ـ أيضاً ـ: «في أفواههم عسل، وفي أجفانهم كحل، ووظائف النوب عنهم ترفع، وأنف الحوادث تجدع»[2].

ومن التقديم والتأخير: (ما يختص بدلالة الألفاظ على المعاني، ولو أخّر المقدم أو قدّم المؤخر لتغيّر المعنى، ومنها ما يختص بدرجة التقدم في الذكر، لاختصاصه بما يوجب له ذلك، ولو أخّر لما تغيَّر المعنى)[3].

وابن أبي الشخباء في رسائله يلتزم بالتقديم الذي لا يتغير معه المعنى،

---

(١) ابن بسّام ـ الذخيرة ـ ص ٦٤٦.

(٢) ابن بسّام ـ الذخيرة ـ ص ٦٤٦.

(٣) ابن الأثير ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ـ ت: د. محمد الحوفي و د. بدوي طبانة ٢/٢٣.

ولو أخّر ما تغيّر المعنى، كما أن تقديمه لا يفسد المعنى، ولا يدخل به إلى التعقيد أو المماطلة والإغراب.

وإذا كان الاختصاص من أبرز أغراض التقديم، فإن التقديم في رسائل ابن أبي الشخباء لم يكن من أجل الاختصاص (أو التلذذ أو التبرك أو تعجيل المسرة، أو تعجيل المساءة أو التشويق إلى المتأخر)[1]، وإنما كان الغرض في تقديم ابن أبي الشخباء وتأخيره، يعود في الأغلب الأعم إلى مراعاة نظم الكلام؛ وذلك لالتزام الكاتب بالسجع والازدواج والموازنة، والتزامه بالإيقاع الموسيقي، في تركيب جمله ونهاية عباراته: (وذاك أن يكون نظمه لا يحسن إلا بالتقديم، وإذا أخّر المقدم ذهب ذلك الحسن، وهذا الوجه أبلغ وأوكد من الاختصاص)[2].

وقد قدّم ابن أبي الشخباء في الأمثلة السابقة، الجار والمجرور على نائب الفاعل، فقدم للشرع فيه على حرمات، وقدم للأوتار على نغمات، وقدم الجار والمجرور (باللغو) على الفاعل (أفواه)، كما أخّر الفاعل (شفاه) وقدم عليه المفعول به وذلك لمراعاة فن النظم السجعي الذي انتهى بالتاء المفتوحة وبالهاء المربوطة في الجمل الأخرى. ولو قال: (تنتهك حرمات للشرع، تسمع نغمات للأوتار، وتنطق أفواه باللغو، وترشف شفاه رضاب الكؤوس) ما وقع للكاتب ما يريد من طلاوة الكلام وحسنه، ومن محافظة على النظم الموسيقي للعبارات في رسائله، فلم يكن تقديمه للاختصاص إنما كان (للفضيلة السجعية)[3]، وذلك في تقديمه المفعول على الفاعل، كما أن

---

(١) السيد أحمد الهاشمي ــ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ــ دار إحياء التراث العربي ــ الطبعة الثانية عشر ــ ص ١٣٨.

(٢) ابن الأثير ــ المثل السائر ــ ص ٢١١.

(٣) ابن الأثير ــ المثل السائر ــ ص ٢١٣.

تقديمه شبه الجملة المتعلقة بالخبر المحذوف على المبتدأ لم يكن للاختصاص إنما لمكان نظم الكلام، ولحسن النظم السجعي، كما أشرنا من قبل.

وقد حافظ الكاتب في التقديم والتأخير على وضوح المعنى وسلامة التركيب، فلم يذهب التقديم عنده بسلامة المعنى، ولم يخرج على مقتضيات تركيب الجمل، والدليل على ذلك أنه لم يفصل بين (ما يقبح فصله في لغة العرب، كالصلة والموصول وما أشبهها)[1].

وأمثلة التقديم والتأخير في رسائل ابن أبي الشخباء كثيرة، لا يخطئها الباحث.

* * *

ومن هذه الظواهر الأسلوبية ـ أيضاً ـ **التفصيل بعد الإجمال**، فيأتي الكاتب بالحقيقة التي يقتنع بها، ثم يفسّرها حسب وجهة نظره، ليؤكد مذهبه، ويوضّح اتجاهه، ويُقنع القارىء برأيه، حتى يضحى التعليل من الأمور التي تسترعي نظر الباحث لرسائل ابن أبي الشخباء. وفي التفسير بعد الإبهام يقول ضياء الدين بن الأثير في المثل السائر: (واعلم أن هذا النوع لا يعمد إلى استعماله إلاّ لضرب من المبالغة فإذا جيء به في الكلام فإنما يفعل ذلك لتفخيم أمر المبهم وإعظامه، لأنه هو الذي يطرب السمع أولاً، فيذهب بالسامع كل مذهب)[2]. ويقول يحيى بن حمزة صاحب كتاب الطراز

---

(١) ابن سنان الخفاجي ـ سر الفصاحة ـ شرح عبد المتعال الصعيدي ـ نهضة مصر ١٩٦٩م ـ ص ١٠١.

(٢) ابن الأثير ـ المثل السائر ـ القسم الثاني ـ ص ١٩٦ (ومن التفسير بعد الإبهام في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ =

في التفسير بعد الإبهام: «إنه تفعيل من الفسر، وهو البيان، يقال فسر الكلام يفسره إذا بَيَّنَه، وهو في مصطلح علماء البيان عبارة عن أن يقع في مفردات الكلام لفظ مهم أو عدد مجمل أو غير ذلك مما يفتقر إلى بيان، فيأتي بما يقرر ذلك، ويكون شرحاً له»[1].

وأمثلة التفسير بعد المبهم في رسائل ابن أبي الشخباء كثيرة ـ أيضاً ـ ومنها ما جاء في رسالته التي يودِّع بها صديقاً مسافراً، فيقول: «وبقيت بعده أقاسي أموراً تُخفّ الحليم[2]، وتُرْعى الهشيم، وأما الوحشة فقد اصطحبت منها كأساً مترعة... وأما ما أعاني بعد سيره فأشياء: منها عُيْثُ الألم مرة، وزوال الاستمتاع بما يعرفه من تلك المسرة، ومنها اضطراري إلى كثرة مكابرة من أعلى دخل سرائره[3]، واختلاف باطنه وظاهره، ومنها انعكاس كثير من الآمال، وارتشاف الصبابة الباقية من الحال، بحوائج مصرية وشامية، وفوادح أرضية وسماوية...»[4].

ومن أمثلة تفسيره للمبهم، وتفصيله للمجمل، قوله يعلل عدم حبه

= سورة الحجر: الآية ٦٦، وقوله تعالى في أم الكتاب: ﴿إهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم﴾.

(١) يحيى بن حمزة العلوي ـ الطراز ـ ص ١١٤، (وقد يقع التفسير على وجهين، أن يكون الإبهام واقعاً في أحد ركني الإسناد، فيكون بيانه بالركن الآخر، والوجه الثاني أن يأتي على خلاف الأوّل، وهو أن يكون الثاني مفسّراً للأوّل بالصفة).

(٢) الرسالة في معجم ياقوت ـ ص ١٥٦، (تخف الحليم: من أخف أيّ تزيل ظلم وتحمّله على الخفة).

(٣) في الأصل (ذحل سرائره، والذحل العداوة والحقد، والجمع أذحال وذحول).

(٤) الرسالة في معجم ياقوت ـ ص ١٥٦، والارتشاف المبالغة في مص الماء، والحوائج جمع حائجة وهي الشدة أو المصيبة العظيمة التي تجتاح المال وتستأصله كله والفوادح جمع فادحة وهي خطوب الدهر.

لشرب الخمر، وإنما يجاري القوم، ويرتاح لمنادمتهم، فيقول: «وقد أرشفت الخمرة فوجدتها مرارة تذم ولا تحمد... فأما الماء فالله يعلم أني أتجرعه، ولا أكاد أسيغه شوقاً، تلك الخلال التي هي أنقى منه أديماً... وأما ارتياحي إلى الموالي السادة، فارتياح من رحل وترك قلبه عندهم...»[1].

وأحياناً يأتي ابن أبي الشخباء ببعض أبيات من نظمه يفسر بها ما أجمله نثراً، أو يوضح بها ما أبهمه في رسالته، أو يؤكد بها ما ذهب إليه في نثره، ومنها قوله في مناسبة شرب الخمر وذمها أو حُبها:

خَلائقُ: إما ماءُ كَرْمٍ تَرقرَقا أُغادي به أو ماءُ مُزْنٍ مُصَفَّقا[2]

وفي موضع آخر، يفسر الكاتب علة غيابه، عن مجلس مولاه، فيقول بالأداة إما التفصيلية فيقول: «ورأيت أن أنبّه مولاي على ما أنكرته، أن يكون بين أمرين: إما أن يسأل عن السبب الموجب لبعدي عن تلك الحضرة أو يمسك عن الخوض في ما لا تحيط به الخبرة»[3]... وتتضح ظاهرة التفسير في رسالته التي يرد فيها الكاتب ابن أبي الشخباء على رسالة أبي الموفق ويشرح له أموراً كانت غامضة على أبي الموفق فيأخذ في شرح هذه الأمور أمراً أمراً مستخدماً «أما» فيقول: «وأما فلان فيحلّ في قومه محل العميد...» وأما قوله: يتضوعن النشر العبقسي... وأما مراضع ثعالة... وهكذا يوضح الأمور جميعها بتفسير المبهم وتفصيله المجمل.

والكاتب في تفسيره يستخدم «إما» عادة، عندما يتعرض لتفسير أمور أكثر

---

(١) ابن بسّام: الذخيرة ــ ص ٦٣٦.
(٢) ابن بسّام ــ ص ٦٣٥.
(٣) ابن بسّام ــ ص ٦٦١.

من أمـرين، وإذا كان يفصـل أمرين يستخـدم في الأمر الأول إمـا، وفي الثاني «أو»... وقد يكون النثر أكثر استيعاباً لهـذا الأسلوب، لمخاطبـة أسلوب النثر للعقـل، وقد أتـاح أسلوب الرسـائل للكـاتب أن يستغل هـذه الظاهـرة، ويبرز فيهـا، وكان الكـاتب يتوسـل بالتفسير لاستعراض مهـارته الثقـافية، ومقـدراته الإبـداعية حتى يمكن القـول أن تفصيل المجمـل باستخـدام الأداة «إما» كـان شائعاً وكثيراً في رسائل ابن أبـي الشخباء لدرجة كونه ظاهرة أسلوبيـة واضحة، لا تقـل عن ظـاهــرة التقـديم والتــأخير أو الحــذف والـذكــر، أو الإطنـاب والتطويل... وغيرها من الظواهر الأسلوبية في لغة ابن أبـي الشخباء...

* * *

ومن الــظواهـر الأسلوبيــة الـواضحــة في رسـائــل ابن أبـي الشخبـاء ظاهرة الإطناب:

وقد أدّى الكاتب بالإطناب وظائفه الفنية المعدّة لـه، وحـافظ على تكرار أنماطه، وعلى بقاء تراكيب معينة متكررة، استخدمها لتحقيق الإيقـاع الصوتي الذي طالما كان الكاتب يهدف إلى تحقيقه.

والإطناب يختلف عن التطويل والتكرار، ويفرق أبو هلال العسكري بين الإطناب والتطويـل، فالإطنـاب عنده بـلاغةً، «والتـطويل عيّ»[1]. ويـوضـح ابن الأثيـر في المثل السـائر الإطنـاب ويرى أن «اسمـه منـاسب لمسمـاه»[2]، ويقصد بـه عنده المبـالغة في إيـراد المعاني[3]، وحـده أن يقال: زيـادة اللفظ

---

(١) أبـو هلال العسـكـري ــ الصناعتين ــ ص ١٩٠، ١٩١، (أن كتب الفتوح ومـا جرى مجراهما يقرأ على عوام الناس ينبغي أن تكون مطولة مطنبة).

(٢) الإطناب في أصل اللغـة مـأخـوذ من أطنب في الشيء، إذا بـالـغ فيـه، ويقـال أطنبت الريـح، إذا اشتدت في هبوبها، وأطنب في السير إذ اشتدّ فيه.

(٣) ابن الأثير ــ المثل السائر ــ القسم الثاني ــ ص ٣٤٤.

على المعنى لفائدة إذ التطويل هو زيادة اللفظ عن المعنى لغير فائدة. . .[1]، وهو يعتمد أصلاً على التكرير، وإذا كان هذاالتكرير لفائدة بلاغية يهدف إليها الكاتب فهو إطناب، وإذا لم يحقق التكرير أو التكرار فائدة ما فهو حشو أو تطويل.

ويعرف «الهاشمي» في جواهر البلاغة الإطناب بأنه: «زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، أو هو تأدية المعنى بعبارة زائدة عن متعارف أوساط البلغاء لفائدة تقوية المعنى وتوكيده، وإذا لم تكن في الزيادة فائدة يسمى تطويلاً»[2]، ويذكر الهاشمي للإطناب أنواعاً كثيرة، ويعدد وظائفه الفنية[3].

والإطناب في رسائل ابن أبي الشخباء ملفت للنظر، التزم به الكاتب في رسائله جميعها، وقد فرضه على نفسه فرضاً، لالتزامه بالسجع والتجنيس، والموازنة والازدواج. ومن أمثلة الإطناب قوله يصف المودات بأنها: «متينة العقود، صادقة المشهود، موضوعة على أصل عريق، وأساس وثيق، لم تزلزلها الأباطيل المعترضة، وإن تناقلتها ألسن مختلفة»[4]. وقد دفع الكاتب إلى الإطناب دفعاً محافظته على السجع والموازنة بين الجمل، ليحقق به تناسقاً صوتياً معيناً. كذلك عندما يصور هجر سيده له فيرى أن: «سلامه قد تقاصر طويله، وروض جوّه قد زاد ذبوله، وماء بشره قد غاضت بحوره،

---

(١) ابن الأثير ــ المثل السائر ــ ص ٣٤٤.

(٢) الهاشمي ــ جواهر البلاغة ــ ص ٢٢٦ و ٢٢٧.

(٣) ومنها ذكر الخاص بعد العام، وذكر العام بعد الخاص، والإيضاح بعد الإبهام والاعتراض والتوسيع والتكرير، لغرض يقصده المتكلم، والإيغال، والتذييل، والاحتراس والتتميم.

(٤) الرسالة في الذخيرة ــ ص ٦٢٧ و ٦٢٨.

ونشاط لقائه قد استمر فتوره[1]، وكلها عبارات تؤكد هجر مولاه، وإدباره عنه. ولكن الكاتب تفنن في تكرار الجمل تكراراً فنياً، فلم يكرر ألفاظاً بعينها، ولم يأت بمترادفات، ولكنه نوّع في جزئيات الفكرة، وفصّل أمارات الجفاء، وأكثر من التوسل بالتصوير الفني، ليبعد عن تكرير يكون من نتيجته الملل والسأم، وكان مدفوعاً إلى ذلك، محافظة على إثبات أصالته الفنية، وقدرته الإبداعية، في إنشاء الرسائل، وتمكّنه من التلاعب بأوجه التصوير الفني المختلفة...

ومن صور الإطناب التي التزم بها ابن أبي الشخباء إعادة المعنى المنثور نظماً، رغبة في تجديد القوالب الفنية، وتأكيداً للمعنى الذي يريد تصويره، وكثيراً ما كان الكاتب يتم الفكرة المنثورة بالأبيات المنظومة، حتى ولو كان لا يؤدي بالمنظومة جديداً، يكفيه جدة القالب، وطرافة التشكيل، ومما ينفي عن إطنابه شبهة التطويل والتكرير، تفصيله للأمور واستقصائه للجزئيات، ومن صوره تلك تصوير الكاتب لجمال الجارية التي تسقي الخمر: «فهي ظبي كُحّل بالسحر لحظاته، وأطلق العقارب على وجناته، ونظم السلوك في ثغره، وأنبت ثمر الصبا في صدره...»[2].

ومن صور الإطناب عنده تكرار المعنى الحقيقي بصورة مجازية، ليحقق السجع المنشود، ويبعد الملل والسأم، ومن ذلك قوله: «والصغير يعد به كثيراً، والحصاة تحسب معه ثبيراً»[3]، ويستعين أحياناً في إطنابه بالإكثار من استخدام «أم» مثل قوله: «أأنزل إليه وحي، أم عصب به أمر ونهي، أم حصل

---

(١) الرسالة في الذخيرة ــ ص ٦٣٠.

(٢) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٣٤.

(٣) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٤٩.

من الخلافة على وعد، أم أنسىء لـه الأجل مدة العهد، أم قـل عقله، أم رأى الملائكة. . . »[1].

* * *

ومن الـظواهـر الأسلوبيـة البـارزة في رسـائـل ابن أبـي الشخبـاء كثـرة الجمل الشرطية.

وتبـدأ الجمـل الشـرطيـة عنـده ـ عـادة ـ بـالأداة «إذا»، والكـاتب في الجمل الشرطية يطيـل فيها طـولاً ملحوظـاً، ويعطف على جملة الشـرط جملاً أخـرى عديـدة، تتفق ومـا التـزم بـه من النسق الصـوتي، ويعـطف على جملة جواب الشرط، أيضـاً، ليحقق الإبداع الفني والانسجـام الصوتي، والتـوازن الذي كان يهدف إليه.

وقد يسرف الكاتب ـ أحياناً ـ في جمله الشرطية فيطيل فيها طـولاً، قد يُنسى معـه أركان الجملة الشـرطية المعـروفة، فيعـطف على الجملة الشرطيـة ما يقرب من عشر جمل أو ما يزيد، ثم يأتي إلى جملة الجواب، وقد لا تتوازى أحياناً مع الجمل المعـطوفة على جملة الشـرط في عددهـا وطولهـا. . . ويأتي الكاتب ـ أحياناً ـ بشعره جواباً لجملة الشرط المنثورة، ومن أمثلة ذلك قوله: «إن تمادى على هذه الهجرة، ولم يصـح من نشوان تلك السكرة:

فمـا ذاكَ مِن ذَنْبٍ عليَّ اجتـرمتُـه إليـه فيجـزيني بـه حيثُ أَعلَمُ»[2]

وظاهرة الإكثار من الجمل الشرطية واضحة في شعره الـذي استشهد بـه في كتابة رسائله ومنه قوله:

---

(١) المرجـع السابق ـ ص ٦٣٠.

(٢) المرجـع السابق ـ ص ٦٢٩.

«خِرْقٌ إذا أفضى السِماطُ به كَثُرَ العِثارُ وطَبَّقَ الزلَلُ
وإذا السَريرُ سَما بقَعْدتِه غُرِيَتْ بظاهرِ كَفِّه القُبُلُ»[1]

ولم يقتصر الكاتب في أدوات الشرط على أداة بعينها بل كان ينوّع بين إذا ولو ولولا، وكلما غير الجازمة، وأدوات الشرط الجازمة، وإن كان يكثر من الأداة «إذا» عن غيرها ويقرن الكاتب جواب الشرط بالفاء في المواضع التي تستوجب الاقتران...

* * *

أما عن **ألفاظ الكاتب** في رسائله فيغلب عليها سمة السهولة مع الفصاحة، وتجنب الوعورة والغرابة، فكان ينفر بطبعه عن التعقيد والمعاظلة، وكان يجنح إلى اختيار اللفظ البسيطة اختياراً فنياً، ويحقق لكل لفظة مع أختها ما يعرف بالمشاكلة أو الانسجام، حتى يحقق لكلامه الغرض المقصود منه.

وقد راعى الكاتب في اختياره مفردات رسائله، ما اتفق عليه البلغاء والفصحاء فجاءت الكلمة جارية على العرف العربي، غير شاذة، وجاءت مخارج حروفها متباعدة، ولم يكن بين مفرداته الشاذ أو النادر أو الغريب، كما اختفى من رسائله الوحشي والنافر وكثر المألوف والمتداول، لدرجة أنه كان يجنح أحياناً قليلة إلى بعض الألفاظ أو التعبيرات العامية، مثل قوله: «وعزّ عليّ» ويستخدم أحياناً بعض التعبيرات البعيدة عن العربية الصحيحة كقوله: «وانظري تأثير ما صنعت» أو قوله: (لاستقرؤوا) يقصد قرؤوا، أو قوله معبراً تعبيراً عامياً: «والله تعالى يُسهّل من ألطافه الخفية...»[2].

---

(١) ابن بسّام ــ الذخيرة ــ ص ٦٣١.

(٢) ياقوت ــ معجم الأدباء ــ ص ١٦٩.

وتخلو ألفاظ ابن أبي الشخباء من المعرّب والدخيل، فلم يكن بينها ألفاظ غير عربية، وهي على العموم ألفاظ يفهمها الخواص والعوام، فصيحة بسيطة سليمة، لا يحتاج معها إلى معجم لتفسيرها، ولا تحتمل المفردة أكثر من المعنى الذي وضعه الكاتب لها. . . فجاءت لغته ممثلة لعصره ولنفسه ولطبيعة فنه.

* * *

أثر أسلوب ابن أبـي الشخباء
في كُتّـاب الرسـائل الإخـوانية

بقيت من رسائل ابن أبـي الشخباء مجموعة من الرسائل الإخـوانية التي أمكن العثـور عليها، وهي مجمـوعة صـالحة تفسّـر طابـع فنـه، وتفسّر طـابـع العصر في إنشاء الرسائل الإخوانية.

وكان لطريقة ابن أبـي الشخباء في الكتابة الإخـوانية، تـأثير واضـح في كتّاب الرسائل الذين جاءوا بعده، ولعل أكبـر هذا الأثـر يظهـر في رسائـل أكبر الكتّاب المشهورين من بعده، وهو «القاضي الفاضل».

وقد حظي القاضي الفاضل (عبد الرحيم بن علي البيساني العسقـلاني، ٥٢٩ ــ ٥٩٦هـ)، بشهرة واسعة لم يحظ بها ابن أبـي الشخبـاء، وبقيت معظم آثار القاضي الفاضل ولم تفقد مثلما فقدت معظم آثار ابن أبـي الشخباء، كمـا أن الظروف ساعدت القاضي الفاضل، فعندما تـولى صلاح الـدين الأيوبـي أمـر مصر جعله وزيراً له، فنال غاية الشرف لديه «وكان أثيراً عنده، ثم لابنه العزيز، وبقيت لـه عنده منزلته التي كانت لـه عند أبيه، ثم المنصور، ولم يزل كـذلك إلى أن دخـل الملك العـادل مصـر، فـاتفق مـوت القـاضي الفـاضـل يـوم دخوله»[1]، وكان ذلك في سنـة ٥٩٦هـ، ويقول ابن خلكـان: «وقد زرت قبـره

(١) ابن شاكر الكتبـي ــ فوات الوفيات ــ ص ٢٨٥.

بسفح المقطم مراراً، وقرأت تاريخ وفاته على الرخام وكان من محاسن الدهر»[1].

وتكاد تجمع دراسات عديدة، قديمة وحديثة على أن القاضي الفاضل تأثر بابن أبي الشخباء، في كتاباته، وأن القاضي الفاضل نَهَجَ نَهْجَ ابن أبي الشخباء، في تأليف الرسائل، وتشير دراسات أخرى إلى أن القاضي الفاضل ابتدع طريقة لكتابة الرسائل عرفت به، وسميت باسمه، يقول المقدسي في تطور الأساليب النثرية: «ومما لا ريب فيه أنه كان للقاضي الفاضل يد طولى في هذه الحركة، حتى عدّ شيخ الصناعة الكتابية، وحتى صاروا يقولون الطريقة الفاضلية»[2]، ويتفق مع المقدسي محمود مصطفى في كتابه الأدب العربي في مصر، فيقول: «إن الطريقة التي اختطّها لنفسه، وعرفت به ثم شاعت وأعجب بها الناس فقلدوها، وسرت روحها في أزمان متعاقبة بعد صاحبها فهي طريقة أول ما يقال فيها أنها عويصة لا تطاوع كل محاول ولا تتسلس لكل سائس»[3].

ويصل باحثان آخران وهما د. محمد كامل حسين ود. شوقي ضيف إلى أن طريقة القاضي الفاضل ليست من ابتداعه، وليس القاضي أول من توصل إليها ووضع أسسها ويقول د. محمد كامل حسين في أدب مصر الفاطمية: «فإذا جاء القاضي الفاضل في أواخر العصر الذي نؤرخه، والعصر الذي يليه، وأسرف في استخدام هذه الألوان البديعية فهو لم يأت بشيء جديد، إنما أخذ عن أساتذته من كتّاب مصر الفاطمية طرائقهم في الكتابة، وسار على منهجهم

---

(١) ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ــ ١/٤٢.

(٢) أنيس المقدسي ــ تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ــ دار العلم للملايين الطبعة السابعة ــ ١٩٨٢م ــ ص ٢٩٢.

(٣) محمود مصطفى ــ الأدب العربي في مصر ــ ص ٣١٣.

وسننهم، ولكن اشتهر أمر القاضي الفاضل في التاريخ الإسلامي، والتاريخ الأدبي أكثر من شهرة أساتذته كتّاب مصر الفاطمية، لأن القاضي الفاضل قرن اسمه باسم صلاح الدين الأيوبي، فكان وزير صلاح الدين ومستشاره، والمؤرخون أشادوا بصلاح الدين، فمن الطبيعي أن يرفعوا شأن القاضي الفاضل، حتى بالغ بعض الكتّاب فقال أن القاضي الفاضل ابتدع طريقة جديدة في الكتابة عرفت بالطريقة الفاضلية»[1]، ويعلق د. محمد كامل حسين بقوله أنهم قد تسرعوا في أحكامهم ونسبوا إلى القاضي الفاضل مذهباً جديداً في الكتابة، وفي الحقيقة ما القاضي الفاضل إلا تلميذ من تلاميذ كتّاب مصر الفاطمية وخاصة ابن أبي الشخباء، لقد حفظ القاضي الفاضل رسائله، وتشبّع بروحه الفنية، وسار على طريقته، غير أن القاضي الفاضل قد زاد واتّسع في أساليب ابن أبي الشخباء الفنية.

ويتفق د. شوقي ضيف مع الرأي الذي وصل إليه د. محمد كامل حسين فيقول: «إن ما بقي من كتب ابن أبي الشخباء ورسائله يدل على خطأ من يذهبون إلى أن القاضي الفاضل هو أول كاتب كبير يظهر في مصر. ويبالغ بعض مؤرخي الأدب في ذلك، فينسبون إليه ما يسمى طريقة القاضي الفاضل، والقاضي الفاضل نفسه تخرّج في هذا العصر، بل لقد تم تكوّن القاضي الفاضل في هذا العصر نفسه، وكان من كتّاب دواوينه»[2].

ويرى د. شوقي ضيف أن القاضي الفاضل كان يقلد تقليداً شديداً آثار كتّاب العصر الفاطمي، من أمثال ابن أبي الشخباء وغيره، وهو لم يأت بجديد في استخدام العناصر الفنية بالقياس إلى صناعة ابن الشخباء، وغاية الأمر أنه

---

(١) د. محمد كامل حسين ــ أدب مصر الفاطمية ــ ص ٣٦٤.

(٢) د. شوقي ضيف ــ الفن ومذاهبه في النثر العربي ــ ص ٣٦٤.

اتسع بها، ووسّع طاقتها، واستطاع أن ينفذ بها إلى كل ما أراد من تجويد وتحبير[1].

وأثر ابن أبي الشخباء في طريقة القاضي الفاضل واضح، وطوابعه الفنية في رسائله ظاهرة، ولهجاته تنطق باقتدائه به واهتدائه إلى معالمه، لقد أكثر القاضي الفاضل في رسائله من تشخيص المعاني، والتوفر على الاستعارات، وكان يميل إلى الاستعانة بالمجاز، وفي رسائله العديد من هذه المجازات، التي كان يتكلف في معظمها، والتي كان يعمد إليها ليحسم الموقف، أو يعظّم صاحبه، وليظهر براعته في السيطرة على فنون الكلم، وأكثر القاضي الفاضل أيضاً من استخدام الجناس، وقد أولع به إلى حد التكلف المتعمد، وكثر في رسائله حتى تكاد لا تخلو رسالة منه، كذلك أكثر من الطباق وكان يميل في أسلوبه إلى العطف وإلى الترادف وإلى الإطناب، والتزم بالسجع التزاماً لم يتحرر منه في أي مقطع أو رسالة، كما أكثر من التضمين والاستشهاد من القرآن الكريم والشعر القديم. وكما كان لابن أبي الشخباء شعر من نظمه في رسائله وفي غير رسائله يدعو هذا البحث إلى جمعه ودراسته، كذلك للقاضي الفاضل شعر أيضاً: «فقد عرف للقاضي الفاضل ديوان شعر موجود بدار الكتب المصرية»[2].

كما ضمّن القاضي الفاضل رسائله أمثالاً شائعة، وأكثر من استخدام بعض المصطلحات العلمية، وحّل أبيات الحكمة، وقد جمعت رسائله، ومنها ما يعرف باسم: «الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم» وهو من اختيار محيي الدين بن عبد الظاهر، وقام بتحقيقه د. أحمد بدوي[3].

---

(١) د. شوقي ضيف ــ الفن ومذاهبه في النثر العربي ــ ص ٣٦٤.

(٢) تحت رقم ٧٤١٩/أدب، ويشتمل ديوانه على ١٨٠ صفحة من القطع المتوسط.

(٣) د. أحمد بدوي ــ الدر النظيم من ترسُّل عبد الرحيم ــ اختيار محيي الدين بن عبد الظاهر ــ نهضة مصر ــ ١٩٥٩م.

إن القارىء لرسائل القاضي الفاضل يلحظ أن أهم السمات الفنية تتفق مع سمات ابن أبي الشخباء الفنية، بيد أن القاضي الفاضل زاد فيها واتسع، وبالغ في استخدام هذه السمات والمهارات مبالغة وصلت به إلى حد التكلف. ومن رسائل القاضي الفاضل التي تقترب من أسلوب ابن أبي الشخباء قوله في رسالة شوق له: «سلام على تلك الخلائق، إنها هي الثمرات الطيبات، إذ تجنى

فَلاَ فَلَّ صَرْفُ الدَّهْرِ حدَّ شَبابِها ولا صَحِبَتْ إلا السَّلامةَ واليُمْنا

شوقي إلى لقاء حضرة مولاي وسيدي وسندي، وساعد يدي، ويمين شمالي، وجنوب شمالي، وكنزي الذي اعتمد عليه، ومالي، ومن به أرجو بلوغ أمالي، المولى الأجلّ يتيمة عقد الإخلاء، وواسطة سمط الأصفياء، مدار فلك الوفاء وقطبه، ومزاج رحيق الإخاء وقطبه[1]، وروح جسد الإخلاص وقلبه[2]، وجلى يعصم الضياء وقلبه، أدام الله جماله، وضاعف جلاله، وحرس من الغير ظلاله، وبلّغه سؤله، وأماله، وأحسن منقلبه، وعقباه، ومآله...»[3].

والقاضي لم يقلد ابن أبي الشخباء تقليداً، ولكنه تأثّر بأسلوبه، وتعلّم من رسائله، واستفاد من حفظه معظمها، وقد صوّر طريقة عصره الأيوبي فأضاف إلى معالم الطريقة الفاطمية الجديد أيضاً، فقد كان للكتابة الإخوانية مصطلحات في عهد الدولة الأيوبية ذكرها القلقشندي في صبح الأعشى[4]،

---

(١) قَطب بفتح القاف ــ قَطَب الشراب: مزجه ــ وبضم القاف بمعنى: ملاك الشيء.
(٢) القلب (بالضم): سوار المرأة.
(٣) الرسالة في الدر النظيم ــ ١٢/٨.
(٤) القلقشندي ــ صبح الأعشى ١٦٧/٨.

فلم يكن للابتداء عندهم طريقة متفق عليها، فأحياناً يدعون للمجلس وأحياناً يدخلون إلى الموضوع بدون تقديم، وكان القاضي الفاضل يطلق على الرسالة لفظ «الخدمة» فيقول في رسالة له يهنىء فيها بالشفاء: «هذه الخدمة صادرة، أدام الله نعمة المجلس دوام الأيام، وأمدّه بلطف الجود والإنعام»[1] والقاضي يقصد بالخدمة الرسالة، ويدعو للمجلس بدوام نعمة الله على مر الأيام. وفي رسالة ثانية يقول القاضي في مطلعها: «هذه الخدمة صادرة إلى المجلس» والخدمة الرسالة والمجلس المرسل إليه الرسالة...

والقاضي الفاضل لم يلتزم في سجعه بما التزم به ابن أبي الشخباء في جعله بين جملتين فقط، وإنما كان يجعله بين ثلاث جمل أو أربعة، وكان يطيل أحياناً في رسائله طولاً غير معهود في رسائل ابن أبي الشخباء، ويتلاعب بالجناس وبالتورية تلاعباً يحتاج معه القارىء إلى أن يجهد فكره، وقد يضيع المعنى وتغيب الفكرة في سبيل بحثه عن جناس أو تورية، ولم يكن ابن أبي الشخباء متكلفاً كل هذا التكلف، كما أن القاضي الفاضل استخدم ألفاظاً معربة في رسائل ومنها «القوقص» في قوله: «ولم يفلت منهم إلا القوقص»[2]، وفي رسالة أخرى جاء فيها: «وأودعوا الكنائس بها وبيوت الديوية... والاستبارية منها كل غريبة من الرخام الذي يطرد دماؤه، ولا يطرد لألاؤه».

---

(١) الدر النظيم ــ ص ١٥.

(٢) معرب اللفظ اللاتيني (Comes) ومعناه حاكم أو حارس. (الدر النظيم ــ ص ٢٤).

(٣) أطلق المسلمون المؤرخون اسم الديوية على جمعية فرسان المعبد (Templiers) كما أطلقوا لفظ الاستبارية على جمعية الهستبالية (Hospitaliens) وقد أُسِّسَتْ الجمعية الأولى سنة ١١٩١م، لحماية فريق الحجاج المسيحيين بين يافا والمقدس، والثانية يرجع تأسيسها إلى سنة ١٠٩٩م، بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ثم تحول كلٌّ من الجمعيّتين إلى هيئة دينية (الدر النظيم ص ٣١).

لقد تأثر القاضي ببعض سمات ابن أبي الشخباء وزاد فيها واتسع، وبالغ وتكلف، ويمكن القول أن للقاضي الفاضل طريقة تعتمد في أصولها على رسائل ابن أبي الشخباء وخصائص الكتابة الفاطمية لعصر ابن أبي الشخباء، ولكن القاضي الفاضل وصل بالطريقة الفنية إلى حد المبالغة التي ظهرت في نثره وفي نظمه.

ولو حظي نثر ابن أبي الشخباء بمثل حظ رسائل القاضي الفاضل في التسجيل والبقاء، لكان لابن أبي الشخباء شهرة واسعة في عالم الكتابة تفوق الشهرة التي حظي بها تلميذه القاضي الفاضل، وهي شهرة افتقد إليها ابن أبي الشخباء لضياع معظم رسائله، ولافتقاده للمكانة التي ارتقى إليها القاضي الفاضل في عصره. ولعل في هذه الدراسة ما يعيد لابن أبي الشخباء بعض حقه المفقود. . .

● ● ●